

الفصل الثالث

نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن الكريم

- الصورة الجمالية فى فنون الكلمة.
- أنماط التصوير الجمالى فى القرآن الكريم.
- نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن الكريم.
 - فى مشاهد خلق الكون.
 - فى مشاهد الطبيعة.
 - فى مشاهد القيامة.

الفصل الثالث

نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن الكريم

أولاً: التصوير الجمالى فى فنون الكلمة

التعبير عن الواقع والحياة والكون بمختلف وسائل التعبير- من فنون الزمان والمكان، أو فنون القول أو الصوت أو الشكل- هو عملية حيوية لازمة لحياة الإنسان الفكرية والثقافية والاجتماعية ولتطور هذه الحياة عبر الزمان والمكان.

والتعبير هو عملية إبداعية خلاقة حية، تختلف فى معناها ومفهومها عن عملية التسجيل والمحاكاة السلبية التى تفتقد إلى الإرادة والقصد والوعى، والتى لا تملك سوى تسجيل الحدث أو الموضوع بحاله وواقعه وحقيقته المجردة. وإذا كان (التقرير) هو طبيعة (التسجيل) وطريقته، فإن (التصوير) هو طبيعة (التعبير) ووسيلته.

إذ أن التصوير عملية إبداعية خلاقة تضى على الموضوع المصور ما تملكه الذات المصورة من خيال مبدع بحيث تمنح له حرية التصرف فى شكل الشئ المصور وأوصافه وملامحه وتفصيله، وحرية الإضافة إليها أو الحذف منها، وكذلك حرية التعديل والتغيير وفق إرادة المصور المبدع ومشينته ورغبته، وبما يتوافق مع أهدافه ويتواءم مع غاياته: شكلية كانت أم موضوعية، جمالية أم فكرية، مادية أم معنوية.

والفن بوجه عام هو «نهج بارع فى ابتكار الجمال والتناسق والنظام، أشبه بلغة خاصة تختلف عن اللغة التى يتحدث بها الناس، لغة قادرة على التعبير عن الأفكار والأحاسيس والمشاعر والعواطف، وعن تجارب الفنان الذاتية والاجتماعية ونقلها للآخرين. والفنان عندما يقوم بإبداع عمله الفنى يحس انه أسير تجربة عامة تسترعى اهتمام سائر البشر ولهذا يحرص على أن يجعل عمله سواء كان إنسانى النطاق أو ذاتى النطاق إلى عمل ميسور الفهم تسخ عليه موهبته فى النهاية الجمال الآسر الذى ينفذ إلى مشاعر الناس»^(١)

(١) ثروت عكاشة: الزمن ونسيج النغم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠، ص ٩.

وإذا كان هذا هو المفهوم العام للفن فإن فن التصوير بمفهومه التشكيلي هو ترجمة المعاني والأفكار إلى إشكال بصرية تكون في مجموعها الصورة المرئية للموضوع. فهو التعبير عن الموضوع أو الفكرة بواسطة وسائل التخطيط والتلوين بأنواعها وتراكيبها المختلفة على المسطحات المناسبة. ويستطيع الفنان المصور أن يضمن أشكاله الأبعاد والظلال والأضواء والمسافات والدرجات اللونية والملمسية، وغير ذلك من الإيحاء بالحركة الإيهامية والتجسيم، وكل تقنيات التصوير التشكيلي.

وتستطيع الكلمة أن تقوم بمهمة الريشة الملونة أو العدسة المصورة، في تحويل المعاني والأفكار إلى صورة فنية متكاملة لموضوع التعبير. صورة يملكها الحس ويستشعرها الوجدان ويتمثلها الذهن. هذه الصورة بكل ما تملكه من وسائل التعبير والتجسيم، من إيقاع وحركة وأضواء وظلال وخطوط وألوان وعلاقات.

ونستطيع أن نتلمس الصورة الجمالية في فنون الكلمة العربية على اختلافها. ولعل سبيلنا في ذلك هو تقصى فن الشعر باعتباره أبرز فنون القول، بل هو فن العرب الأول. فبنظرة سريعة على المجتمع العربي في العصور الجاهلية وفي عصر الإسلام الأول نستطيع أن نلمس أى نوع من الحياة التى كان يعيشها العربى قبل الإسلام وبعده. لقد عاش الإنسان فى بيئته الصحراوية عيشة ساذجة بسيطة تقوم على الطبيعة والقطرة ولم يعرف من وسائل الكسب سوى الرعى والتجارة، ولم يعرف من أحوال الاجتماع سوى فنون الفروسية والحرب، ولم يملك من وسائل هذه الحرب سوى سيفه ورمحه وفرسه. وطبعى أن هذه الحياة البسيطة التى لم تعرف من تعقيدات الحياة المتحضرة شيئاً قد ولدت نوعاً من تلك العادات الأخلاقية والعادات الاجتماعية البسيطة والواضحة التى تكاد تكون ثابتة لا تتغير فى المجتمع البدوى العربى. فكل ما عرفه العرب من القيم الأخلاقية هو الشجاعة والكرم والبرء والعدل والوفاء والعفو عند المقدرة... وما إلى ذلك من قيم وصفات خلقية حميدة.

فإذا تناولنا على سبيل المثال فن الشعر، وهو الفن المتميز عند العربى الجاهلى وفى صدر الإسلام- وبحسنا عما يمكن أن يكون للمجتمع العربى من أثر على الشاعر فأننا يمكن أن نقطع بأن هذه التقاليد الاجتماعية التى أشرنا إليها قد جعلت هذا التأثير متصلاً بالشكل الفنى فقط حيث أن المحتوى يكاد يكون واحداً لا يتغير، بل ليست

هناك فرصة لتغييره. وبناء على ذلك فلم ينظر المجتمع العربي إلى الشاعر نظرة تطويرية من حيث المحتوى الذى يعالجه أو الفكر الذى ينطوى عليه شعره، ولم يطالبه بأى غاية نفعية أخلاقية كانت أم غير أخلاقية، ولكن كان يكتفى دائما بالمتعة الخالصة. تلك المتعة التى تحققها (الصورة الفنية البحتة). لذلك ارتبطت نظرة المجتمع العربي دائما إلى الشعر بالتقاليد الفنية الشكلية الصرفة. ولم تكن هذه النظرة من جانب المجتمع إلى الفنان والشاعر فحسب، بل كان هذا ميلا طبيعيا من الفنان نفسه نحو الابتكار والتجديد فى الصورة الفنية والميل المستمر إلى تحسين هذه الصورة وتجويدها للوصول بها إلى أسمى درجات الكمال الفنى.

وهكذا نجد أن هذه التقاليد الاجتماعية العربية قد جعلت للصورة الشعرية بما تحويه من بلاغة الصياغة مقياسا للمفاضلة بين شعر وآخر.

ولقد تمثل مفهوم الفن كصناعة فى ذهن النقاد العرب الأولين، حيث يخضع الفن تمثلاً فى فن الشعر- لأصول هذه الصناعة وقواعدها الصارمة حتى تتحقق للشعر صيغته وصورته الجمالية- وشكله الفنى المأمول والذى يحقق الإمتاع الحسى والإمتاع الذهنى معاً. والتأمل لآراء النقاد العرب والشعراء والبلاغيين يجد أن عامل الصنعة قد سيطر على غيره من العوامل فى ذهن النقاد والشعراء العرب واهتمامهم. وهذا مؤداه أن نظرة الناقد العربى بوجه عام تقوم على العناية بالشكل الخالص للفن. ذلك أن الصورة المصنوعة عندهم أفضل من الصورة الطبيعية، وكما رأينا قبل ذلك عند التوحيدى من أن الجمال فى الصناعة (الفن) أكمل من الجمال فى الطبيعة.

ولقد أدرك الناقد العربى منذ قرون طويلة- بحسه المرهف وفطرتة، ونظرتة الثاقبة- قيمة الخصائص الموضوعية فى الشئ الجميل وراح يبحث عنها فى فنه الأول (فن القول). ولقد عنى النقاد العرب فى دراساتهم فى فنون البلاغة بتحديد شروط النص الجميل شعرا كان أم نثرا. وقد أسفرت بحوثهم عن الوصول إلى مقومات الشكل الفنى الجميل. وتتلخص هذه المقومات فى الإيقاع والعلاقات.

وإذا كان الإيقاع والعلاقات هما أهم مقومات الصورة الجميلة فى رأى النقاد العرب فأنا نجد أنفسنا بالضرورة بصدد مقارنة- سريعة على الأقل- لكل من المفهوم العربى القديم، والمفهوم الأوروبى المعاصر لهذه المقومات حتى يتبين لنا مدى العلاقة بين

المفهومين ارتباطاً أو انفصالاً. ولنبدأ بمفهوم الإيقاع والعلاقات عند النقاد والمفكرين العرب.

إذا كان الفكر الغربي قد فهم الإيقاع على أنه يتحقق من النظام، والتغيير، والتكرار، والتنوع، والتلازم، والتوازن، والتوازي والتساوي... إلى آخر تلك المترادفات، فإن هذا الإيقاع قد تمثل عند الناقد العربي تحت مسميات أخرى بلاغية تتردد في أبواب البديع التي عرفها العرب مثل: الجمع والتفريق والتقسيم والاتلاف، والمقابلة والنظير، والابتداء والانتهاء، والسجع.. إلى آخر تلك القوانين البلاغية العربية.

ونظراً لذلك فقد بذل النقاد والبلاغيون العرب جهداً كبيراً في الكشف عن هذه القوانين وكيف تتمثل في الأدب بوجه عام وفي الشعر بوجه خاص. ومن هؤلاء النقاد: قدامة بن جعفر في كتابيه (جواهر الألفاظ)، و(نقد الشعر) وابن سينا الخفاجي في (سر الفصاحة)، وضياء الدين ابن الأثير في (المثل السائر)، وأبو هلال العسكري في (سر الصناعتين).

«ذلك أن الإيقاع عنصر أساسي لم ينكره أحد، لأنه ملازم للشعر لا يتخلى عنه، وهو ليس مظهراً فحسب بل هو قوة جوهرية فيه ناتجة من الانفعال أو هي اهتزازات منظمة لما يحسه الشاعر من انفعال»^(١)

وعن النظم والإيقاع في الشعر يقول الناقد العربي ابن رشيق أن النظم فضيلة في الشعر يتفوق بها على النثر «إن كل منظوم أحسن من كل منشور في جنسه في معترف العادة. ألا ترى الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه إذا كان منشوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي كسب له ومن أجله انتخب وإن كان أعلا قدراً وأغلا ثمناً. فإذا نظم كان أصون له من الابتدال وأظهر مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منشوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج من الطباع»^(٢)

ولقد كان العرب في سبيل الكشف عن القيم الإيقاعية في الصورة الجميلة في الفن القولي ينشدون الصورة المثلى التي تصل في جمالها إلى حد الكمال. «وقد بحثوا

(١) د. محمد زغلول سلام: ضياء الدين الأثير وجهوده في النقد، ص ١٨٩.

(٢) د. محمد زغلول سلام: النقد العربي الحديث، ص ٥٥.

فوجدوا أن هذه الصورة تتمثل في الآثار الأدبية الراقية كالشعر القديم من شعر الفحول
وكالحديث النبوي بل وجدوها تتمثل في أرقى هذه الآثار وهو القرآن الكريم» (١)

أما عن ثاني مقومات الصورة الجميلة عند العرب وهي العلاقات فبوسعنا أن نؤكد
أن النقاد العرب إلى جانب اهتمامهم بالإيقاع اهتموا اهتماما بالغاً بالبحث في تركيب
الألفاظ وتنظيمها وعلاقة بعضها مع البعض.

وابرز من اهتم بهذا الاتجاه من نقاد العرب ضياء الدين ابن الأثير، ورائد هذا الاتجاه
النقاد العربي عبد القاهر الجرجاني. ولعلنا نكتفى هنا بذكر مثال لرأى كل منهما
للتدليل على أهمية العلاقات في الشعر.

يقول ابن الأثير في كتابه (المثل السائر): «إن تفاوت التفاضل في تركيب الألفاظ
أكثر مما يقع في مفرداتها لأن التركيب أعسر وأشق... فإذا فكرت في قوله تعالى:
﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وفيض الماء وقضى الأمر واستوت على
الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾ لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلا
لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنه لم يعرض لها هذا الحسن الامن حيث لاقت الأولى بالثانية
و الثالثة بالرابعة وكذلك إلى آخرها.

فإذا ارتبت في ذلك فتأمل هل نرى لفظة منها لو أخذت من مكانها وأفردت من بين
إخوانها كانت لابسة للحسن ما لبسته في موضعها من الآية... وما يشهد لذلك ويؤيده
أنك ترى اللفظة تروقك في كلام ثم تراها في كلام آخر فتكرهها... وأنك ترى لفظتين
يد لان على معنى واحد حسن في الاستعمال وهما على وزن واحد وعدة واحدة إلا انه
لا يحسن استعمال هذه في مقطع تستعمل فيه هذه بل يفرق بينهما في مواضع
السبك» (٢)

أما عبد القاهر الجرجاني فهو يردد نفس هذا المعنى ويؤكد أهميته ويصر عليه
بحماسة بالغة فيقول في كتابه (دلائل الإعجاز)... هل تجد أحداً يقول هذه اللفظة
فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل

(١) عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، ص ٢٣٣.

(٢) عز الدين إسماعيل: نفس المرجع، ص ٢٣٦.

موانستها لأخواتها، وليس الغرض بنظم الكلمة إن توالى ألفاظها فى النطق بل إن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل،^(١)

وهكذا نستخلص من كلام ابن الأثير والجرجاني أن اللفظ المجرد لاجمال فيه ولا قبح ولكن الجمال يكمن فى علاقة اللفظ بغيره من الألفاظ. فنحن حينما نحكم بجمال الكلام فأنا نحكم بجمال هذه العلاقات.

ولعل عبد القاهر الجرجاني بتفكيره هذا _ فى العلاقات الفنية، وفى الوحدة العضوية للعمل الأدبى إلى جانب القيم الإيقاعية كمقومات للشكل الجميل - يكون قد تبه إلى اتجاه فى غاية الأهمية يتيح تحديد الأسس المشتركة فى جميع الفنون.

وعلى ذلك فإن الجرجاني كان بهذا التفكير بعيد النظر إذ تمثل فى ذهنه ذلك الأساس المشترك الذى يجمع مختلف الفنون التعبيرية والتشكيلية على السواء. وهو بهذا المفهوم يبلور الموقف العربى العام من الجمال ومقوماته فى مختلف الفنون ومن بينها فنون القول.

وهكذا رأينا كيف تمثلت عناصر الإيقاع والوحدة كمقومات للشكل الجميل عند النقاد العرب. ويجدر بنا أن نستعرض بصفة عاجلة كيف تمثلت مفاهيم هذه المقومات عند نقاد الغرب المعاصرين حتى نرى مدى انعكاس هذه المفاهيم العربية على الفكر الأوروبى الحديث.

تحدث كل من (سوريو) و(كانت) عن الإيقاع فى العمل الفنى وعرفاه بأنه هو التنظيم المتوالى لعناصر العمل الفنى المتغيرة كفيها. وإن كان الإيقاع من صفات الصورة الجميلة التى تشترك فيها جميع الفنون إلا أن هذه القيم الإيقاعية تتحقق فى أجلى صورة فى رأى (سوريو) و(كانت) فى فن الموسيقى وفن الأرابيسك. ولعل مفهوم (كانت) و(سوريو) للأرابيسك _ هذا الفن المميز للروح العربية بوجه عام - يقودنا إلى نتيجة على جانب كبير من الأهمية وهى أن هذه القيم الإيقاعية هى ذلك الأساس المشترك الذى تقوم عليه الفنون العربية جميعا من شعر وموسيقى وزخرفة، حيث أن الشعر الجميل عند النقاد العرب ينطوى أساسا على تلك الصور الميلودية الإيقاعية التى تنطوى عليها الموسيقى والأرابيسك.

(١) عز الدين إسماعيل: نفس المرجع، ص ٢٣٦ .

أما عن العلاقات بين أجزاء الصورة الجميلة فهي نظر (هاربرت) أساس للشكل الجميل، لدرجة أنه يجعل الصورة تتكون من علاقات فقط ولا شئ سواها، وهو بذلك يطلق عليها (العلاقات الاستطيقية الأساسية) حيث أن المفردات في حد ذاتها ليست موضوعاً للحكم الجمالي.

أما عن الوحدة العضوية للعمل الفني فقول الدكتورة أميرة مطر في معرض حديثها عن مقومات الصورة الفنية: «يعنى هذا أن ترتبط أجزاء العمل الفني فيما بينها لتكون كلا واحداً، وكل المبادئ الأخرى ينبغى أن تخدم هذه الوحدة التي ذكرها القدماء في تحديدهم للجمال الفني بقولهم الوحدة في الكثرة، وهي تعنى ألا يكون العمل الفني ناقصاً أو مفتقداً لشيئ يضاف إليه حتى يتم اكتماله، ولا ينبغى أن تزيد فيه أجزاء لا داعى لوجودها.

وهذا المبدأ يقضى بتحقيق الوحدة بين الصورة، والمضمون في العمل الفني»^(١)

وهكذا نجد أن الفلاسفة والنقاد المعاصرين من أنصار المدرسة الشكلية ينادون بدراسة الشكل الفني، ويهتمون بتحليل الجمال ومقوماته في الصورة الفنية في مختلف عناصرها فيكشفون فيها عن قوانين الإيقاع، والعلاقات بين عناصر الشكل، والوحدة التي تجمع هذه العناصر في كل مترابط. وإذا كان نقاد الغرب يتجهون هذا الاتجاه، ويسلكون ذلك المسلك اليوم _ فلقد رأينا أن نقاد العرب المسلمين قد فعلوا نفس الشئ قبل أن يتنبه علماء الغرب إليه من قرون عدة. بل أن نقاد العرب قد ذهبوا إلى أبعد من ذلك في تمسكهم وتشدهم بمقومات الصورة الجميلة في العمل الأدبي حيث كانوا يتخذون هذه القوانين أساساً لأحكامهم الجمالية على الشعر، ويحاسبون الشعراء على هذا الأساس .

ثانياً: الأنماط الجمالية في التصوير القرآني

أن للقرآن الكريم منطقاً الخاص وطريقته المميزة في التعبير عن موضوعاته. ولم يكن هذا المنطق بحال منطق الذهن والجدل الذهني، بل كان دائماً المنطق الوجداني والجدل التصويري، وفرق كبير في قوة الإقناع وبلاغة التأثير ودرامية التعبير _ بين المنطق الذهني والمنطق الوجداني، بين الواقع التقريري والجدل التصويري.

(١) د. أميرة مطر: مقدمة في علم الجمال، ص ٤٢ .

ولما كان الذهن الانساني . مهما تفجرت طاقاته واتسعت قدراته . قوة صغيرة ومحدودة تعجز عن إدراك آيات القدرة الإلهية والسبحانية الربانية بسهولة ويسر . فقد التفت القرآن عن مخاطبة الذهنى البشرى إلى مخاطبة الحس والوجدان . وذلك بمنطق التصوير لا التقرير ، ولمنطق التصوير وسيلته التى ميزت أسلوب تناول القرآن مختلف الموضوعات الإلهية التشريعية والعقائدية والتعبير عنها .

حيث يقوم هذا المنطق على تحويل المجردات إلى محسوسات يدركها الحس البشرى وينفعل بها الوجدان الانساني .

وهكذا كانت طريقة القرآن فى تصوير المعانى الذهنية المجردة والحالات النفسية وإبرازها فى صور حسية ملموسة سواء فى المشاهد الطبيعية أو الحوادث والقصص المروية والأمثال أو مشاهد خلق الكون والقيامة .

« أنها لوحات تصويرية حية تبدو شاخصة للعيان بأشكالها الحية وهيئاتها التى تموج بالحركة وبخطوطها ، وألوانها وظلالها ، بإجمالها وتلخيصها و دقائقها وتفصيلها وفى هذه اللوحات القرآنية يلتقى الغرض الدينى بالغرض الفنى فى كل متكامل لا ينفصل .

فعلى المستوى الأول تتحقق الدعوة وترسخ العقيدة وعلى المستوى الثانى تستثار الانفعالات الوجدانية وتستشعر اللذة الفنية والمتعة الجمالية . وهكذا يملك القرآن الكريم تلك القدرة السبحانية العظمى على أن يصور بالألفاظ والكلمات ما تعجز عن تصويره الريشة الملونة أو العدسة المصورة .

« فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية وعن الحادث المحسوس والمشهد المنظور ، وعن النموذج الانسانى والطبيعة البشرية ، ثم يرقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهنى هيئة أو حركة وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد وإذا النموذج الانسانى شاخص حى ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيجسدها شاخصة حاضرة فيها الحياة وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخيل» (١)

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن ، ص ٣٤ .

إنه تصوير للحياة كاملة بكل ما فيها ومن فيها، بل تصوير للكون كله والوجود كله دنياه وآخرته، تصوير تقوم به _ بإعجاز واقتدار وفي اتساق وجمال _ ألفاظ جامدة تأخذ تراكيبها ومعانيها من أبجدية معدودة الحروف، فلا ريشة ترسم وتصور، ولا ألوان تلون وتجسم وتظلل، ولا شخص تمثّل وتعبر، ولا رواة يروون ويحكّون ويتحركون، ولكن مع كل هذا فالتصوير الجمالي في القرآن الكريم _ في الوقت ذاته- هو تصوير باللون والحركة والحوار وجرس الكلمة ونغم العبارة وإيقاع السياق وجمال التناسق والاتساق ليأتي في النهاية تصويراً وإيقاعاً جمالياً تملأه الأذن والعين والحس والخيال والفكر والوجدان. وهنا تكمن أسرار الإعجاز في التعبير القرآني.

ويمكن هنا أن نحصى الأنماط الجمالية ووسائل التصوير الجمالي في القرآن الكريم عن مختلف الموضوعات والتي وردت في آيات القرآن الكريم، في الأنماط التالية:

١- تصوير المحسوس بمحسوس.

٢- تصوير المجرد بمحسوس.

٣- التجسيم المتخيل للصورة الحسية.

٤- الإطالة والتقصير في زمن الحدث.

٥- ضرب الأمثال للتشبيه والعظة.

وسيتناول الكاتب كل نمط من الأنماط السابقة بشئ من التفصيل مع التمثيل.

وقبل هذه الخطوة لابد أن نشير إلى أن التصوير الجمالي في التعبير القرآني يقوم أساساً على تحويل المعاني والأفكار والتصورات الذهنية إلى صور حسية ينفعل لها القارئ والسامع. وذلك باعتبار «أن الإدراك الحسي هو انتقال صور المحسوسات في الحواس، وأن المحسوسات كلها تتأدى صورها إلى آلات الحس وتطبع فيها فتدركها القوى الحاسة، وبذلك يكون الإحساس ظاهرة نفسية إدراكية تحدث نتيجة انفعال يقع على الحس من المحسوسات الخارجية»^(١)

ولقد كان لعوامل الجنس والبيئة وغيرها من المقومات الحضارية أثرها الواضح في تشكيل الملامح العقلية والسمات الوجدانية للإنسان العربي والمسلم، وبالتالي أثرها

(١) محمد عثمان نجاتي: الإدراك الحسي عند ابن سينا، ص ٤٦ .

الهام فى تشكيل تفضيله الجمالى. إن الإنسان العربى - عقلا ونفساً ومزاجاً - سواء كان إنساناً عادياً أم شاعراً أم فناناً وسواء كان مبدعاً أو متذوقاً، قد تمثل لديه المفهوم الحسى للجمال وإدراكه، حيث يعطى اعتباراً كبيراً للذة الجمالية الناتجة عن اللذة الحسية التى هى ثمرة فعل الحواس الإنسانية المختلفة.

ومن هذا المنطلق تشترك الفنون العربية جميعاً من فنون القول والشكل والصوت فى هذه النزعة الحسية.

«ويرجع إلى هذا الاتجاه الواقعى العملى فى الفن الميل العربى إلى تغليب الجانب الحسى فى الفن والأدب، والجانب القريب دون الاعتماد على الجوانب الخفية أو البعيدة أو العميقة»^(١)

ويضيف الأستاذ زكى محمد حسن إلى ذلك قوله: «فالمعيار الأساسى فى الحكم على معظم الآثار الفنية الإسلامية هو النظر دون الفكر، فليس غريباً أن تعمل فنون الإسلام على أن تكسب فى ميدان الزخرفة ما فاتها فى ميدان التأليف الفنى»^(٢)

هذا الاتجاه الحسى الذى يقوم على الشكل وما ينطوى عليه من قيم جمالية تبعث إلى العين الارتياح والى النفس النشوة والاستمتاع، والذى نلمسه بوضوح فى الفنون الزخرفية الإسلامية نراه متجلياً فى الأدب العربى فهو يهتم فى الصورة بالتشبيهات الحسية وكذلك نراه - على حد تعبير د. سلام فى نفس الموضوع - يتطور إلى أدب اللفظ أى يعتمد على جمال العبارة وألفاظها وأجزائها الجمالية وما تبديه من انسجام شكلى فى فنون البديع المختلفة. وعن مقارنة الزخرفة العربية بالأدب العربى والشعر بصفة خاصة من حيث اشتراكهما فى الطابع الحسى يستطرد الدكتور زغلول سلام قائلاً: ويظهر كذلك بوضوح اتجاه الفنان المسلم إلى الزخرف والتكوين الزخرفى البصرى بكل عناصره من ميل إلى التشكيل الهندسى، وتناظر الوحدات والتكرار، ثم تعدد الألوان وتقابها دون تدرج أو عمق فى التصوير مما اكسب الفن العربى ذوقاً خاصاً - وهذا الذوق المسيطر على الفن نجده كذلك يسيطر على الأدب فقد اكتسب الأدب

(١) د. محمد زغلول سلام: النقد العربى الحديث، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٤، ص ٢٩ .

(٢) زكى محمد حسن: فنون الإسلام، ص ٦٧٨ .

بفن البديع هذا التعميق الزخرفي نفسه ونستطيع أن نقارن بين عناصر الزخرفة العربية وفنون البديع المختلفة»^(١)

وبوسعنا أن نضيف إلى فنى الزخرفة العربية والشعر فن الموسيقى العربية أيضا الذى يشترك معهما فى الطابع الزخرفي والتلوين الصوتي والزخارف اللحنية عن طريق الإيقاعات الراقصة والمتميزة وعن طريق تقابل الأحن وتنويعاتها وعن طريق التلوين النغمى الذى يسر الأذن ويحقق نشوة الاستماع ولذته.

وإذا كانت الزخارف العربية تحقق إرضاء حاسة البصر حيث تستمتع العين بها عند النظر إليها والى أشكالها وألوانها وتناظرها وتكرارها. فان فن البديع الذى ينطوى عليه الشعر والأدب العربى يرمى كذلك إلى إرضاء حاسة السمع وذلك بالجناس وضروبه المختلفة والتورية، والطباق وسائر الحلى والمحسنات اللفظية. ولقد تحدث الناقد العربى (الرماني) فى كتابه (النكت فى إعجاز القرآن) عن مخاطبة الشعر للحواس بالاستعارات والتشبيهات ذاكرة أن قوتها تعتمد على أنها تخاطب هذه الحواس أو تستعين بها فى إبلاغ ما وراءها من المعانى»^(٢)

أما الباحثة (روزغريب) فتؤكد ذلك الجانب الحسى فى الشعر بقولها : «والشعر أيضا تصوير: صورة نظرية وسمعية ولمسية وذوقية ومتحركة، يستمد قوته من التصوير المحسوس فى جميع أشكاله، وينفر من المجردات ويرتاح إلى التشبيه والاستعارة والتمثيل والحركة وما يرافق ذلك من تخطيط وتكوين ومادته المعانى المحسوسة التى تفيض بالحركة والحياة»^(٣)

ولنتقل إلى التمثيل لأنماط التصوير الجمالى فى القرآن الكريم :

(١) د. محمد زغلول سلام: نفس المرجع، ص ٣٠ .

(٢) محمد زغلول سلام : نفس المرجع، ص ٤٠ .

(٣) روزغريب : النقد الجمالى، ص ٩٥ .

١- تصوير المحسوس بمحسوس:

الصيغ التشبيهية هي إحدى وسائل التصوير الجمالي والتعبير البلاغي في اللغة العربية، والغرض منها هو تقريب صفة الشيء المشبه. من شكل وقول وفعل - إلى إدراك المتلقى وحسه وخياله بشكل أكثر وضوحاً وأعظم تأثيراً وأوضح إحساساً وابلغ تصوراً من مجرد إخبار المتلقى عن طريق التقرير السلبي لواقع المشبه وصفاته.

ولعل أول أنواع التصوير الجمالي في القرآن الكريم هو تصوير الأشياء الحسية والموجودات المادية بموجودات حسية أخرى. كمثّل قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبا: ٧).

أى جعل الجبال كأوتاد للأرض لتثبيتها كما تثبت الخيام في الأرض بواسطة الأوتاد.

وقوله: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ (الفجر: ١٠-١١)﴾
أى أن فرعون الطاغية الجبار له جنود وجموع وجيوش تشد ملكه وتثبته كأوتاد في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٩).
أى والقمر يسير في مراحل مختلفة يتغير في كل ليلة منها خلال دورته التي تبلغ ثمانية وعشرين ليلة، فإذا كان في آخر منازلها كان حجمه دقيقاً وشكله مقوساً، مثل غصن النخل اليابس حين يجف وينحن بعد ما يؤخذ رطبه.
ويقول سبحانه:

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فُتُصَبِّحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصَبِّحُ مَاؤَهَا غُورًا فَلَن يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلِبًا ﴾ (الكهف: ٤٠، ٤١)

أى يرسل على البستان صاعقة من السماء تدمرها فتصبح أرضاً ملساء تنزلق من عليها الأقدام، جرداء لانبات فيها ولا شجر، ويغور ماؤها بشدة في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر.

وقوله سبحانه:
﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾

أى عند ما أمر الله موسى بطريق الوحي أن يضرب بعصاه البحر، فضربه فانشق وانفلق وانشطر فكان كل جزء منه ضخماً وكبيراً كالجبل الشامخ الثابت.

ويقول تعالى :

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ (نوح: ٧)

يصف نوح عليه السلام قومه المتكبرين العاصين عندما دعاهم إلى طاعة الله والإقرار بوحدانيته نفروا واعرضوا، وسدوا آذانهم بأصابعهم حتى لا يسمعوا دعوته، وغطوا وجوههم ورؤوسهم بثيابهم حتى لا يروه أو ينظروا إليه.

وقوله تعالى :

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢)

فلقد شبه الله تعالى الرياح بالفحل بالنسبة للسحاب والشجر، حيث تقوم الرياح بتلقيح السحاب فيدر ماء، وتلقيح الشجر فيفتح عن أوراقه وأكمامه.

وقوله : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)

بمعنى أن الذين لعنهم الله قلوبهم غليظة قاسية منغلقة ومظلمة، لا يعطونها فرصة لتفهم القرآن وتدبره وكأنها مكبلة ومقفلة بالأقفال الحديدية فلا ينفذ إليها نور الإيمان.

٢- تصوير المجرد بالحسوس :

ويعنى التشبيه الحسى للأفكار المجردة والمعانى الذهنية والحالات النفسية والمعنوية لتقريبها إلى ذهن القارئ والسامع، وإدراكه الحسى. ومن أمثله هذا التصوير قوله تعالى :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ (١)

(١) سورة البقرة : آية ٢٦٤ .

ففى هذه الصورة تشبيه الرياء وانفاق المرائى لما له وإبطال هذه الإنفاق بالرياء، بالحجر الناعم الأملس الذى يعلوه طبقة من التراب ينخدع فيه الناظر إليه فيظن أنه أرض خصبة طيبة منبتة فإذا أنزل عليه المطر أزال عنه الغبار والتراب وبقي الحجر أملساً صلداً كحالته الأصلية. وهكذا حال المنافق حيث يظن أنه سيثاب يوم القيامة على إنفاقه لئله فإذا هو لا يجد أى ثواب أو أجر.

وفى تصوير جمالى آخر يبلغ إعجاز التعبير القرآنى ذروته فى تشبيه المجرى بالبحسوسات حيث يقول تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (١)

حيث يصور الله تعالى الكافرين والمستكبرين بآيات الله بأن دخولهم الجنة هو أمر مستحيل الحدوث أو التحقيق وهذه الاستحالة هى كاستحالة دخول الجملة الضخم من ثقب إبرة الخياطة.

وفى تفسير آخر لهذا التشبيه ما أورده (سيد قطب) :

«ويدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لولوج الجبل الغليظ فى سم الخياط. ويختار من أسماء الجبل الغليظ اسم (الجملة) خاصة فى هذا المقام ويدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثر ليستقر فى النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة فى أعماق النفس وقد ورد إليها من طريق العين والحس. تخيلاً- وعبراً إليها من منافذ شتى فى هينة وتؤدة لا من منفذ الذهن وحده بل فى سرعة الذهن التجريدية» (٢)

وفى صورة تشبيهية بديعة أخرى يقول تعالى :

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣)

(١) سورة الأعراف : آية ٤٠ .

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن، ص ٣٦ .

(٣) سورة التوبة : آية ١٠٩ .

حيث وردت هذه الآية الكريمة على سبيل التشبيه والتمثيل لعمل المؤمنين أهل التقوى والإخلاص، وعمل المنافقين وأهل الضلال. والاستفهام فى الآية للتذكرة وتوضيح الفارق بين هؤلاء وهؤلاء ذلك أن المؤمن الذى يؤسس بنيانه على تقوى الله وخشيته وطاعته، ليس كالذى أسس بنيانه على حافة واد مصدع آيل للسقوط فلا يتحمل هذا البنيان وسرعان ما ينهار به ويسقط به فى نار جهنم.

وفى تصوير المعانى المجردة والحالات المعنوية والنفسية بصورة المحسوس، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذُلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١)

أى أن العاصين والجاحدين الذين عصوا الله بسيئاتهم سيجزون على السيئة من أعمالهم بمثلها وتغشاهم الذلّة والهوان والانكسار لسخط الله عليهم فكأنما اكتست وجوههم بقطعة من سواد الليل، وذلك من فرط سوادها وظلمتها.

وفى موضع آخر تأتى هذه الصورة الحسية البليغة للتعبير عن أولئك الذين يبايعون ويعاهدون ويشهدون الله على إيمانهم وعهودهم، ثم يعودون لينقضوا ما عاهدوا به. حيث يشبههم الله تعالى بتلك المرأة الحمقاء التى تغزل غزلها و تفتله متينا محكما ثم تعود فتحله و تنفضه أنكاثا وأنقاضا. فتقول الآية الكريمة:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ (٢)

وهذا هو تصوير جمالى آخر بتشبيه المعنويات والمجردات بالمدركات الحسية فى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ (٣)

(١) سورة يونس: آية ٢٧ .

(٢) سورة النحل: آية ٩٠ - ٩١ .

(٣) سورة المنافقون: آية ٤، ٣ .

ففى هذه الآفة وصف للمنافقفن الذفن آمنوا بألسنتهم وكفروا بقلوبهم، والذفن ختم الله على قلوبهم وأغلقها فلا يصل إليها هدى ولا نور، فلا يفرقون بين الأفر والشرف بين الإفمان والكفر. أولئك تنخدع ففهم فتعجبك هفئاتهم ومناظرهم لفسنها ونضارتها وجمال أجسامهم، وتزوفق كلامهم وفسن حدفثهم وفصاحتهم وذلاقة ألسنتهم، ولكنهم بهفا كلهم هذه فشبهون ألواح الأفسب المسندة إلى الأناط فهى أشباح بلا أرواح، أدمفتهم خاوفة من الفهم، وقلوبهم فارغة من الإفمان.

وفى آفة أخرى فخطب الله تعالى بنى إسرافل بعد أن أنزل عفهم المن والسلوى بأن فاكلوا من طفبات ما رزقهم من الطفب ولحم الطفر الشهى والأ فظلموا ولا فرتكبوا المعاصى حتى لا فنزىل بهم غضبه، ذلك لأن من فنزىل عفبه الله وعقابه فقد هلك، شقى وكانما هو فهى وفنحدر ففسقط إلى أسفل الطبقات من عذاب الله، ففقول تعالى :

﴿كُلُوا مِن طفبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا ففبه ففحلٌ عفكمٌ غضبى ومن ففحلٌ عفبه غضبى فقد هوى﴾ (١) وفى هذا تصوير لعاقبة كل من فحل عفبه غضب الله وففجلى ذلك فى تصوير السقوط من أعلى القمم مقذوفاً به بكل اندفاع وشدة إلى الهوة السحفة فى أسفل بما فصحب هذه الصورة من هلاك وشدة الارتظام بالأرض.

وفى صورة أخرى أكثر حركة وأسرع ففقاها فصور الله نفس المصفر المحتوم لمن ففشرك بالله ففث لا ففقرى على الثبات والاستقرار ففسرعان ما فهى إلى مصفره المحتوم.

﴿ومن ففشرك بالله ففكانتما خرفاً من السماء ففخطفه الطفر أو فهوى به الرفب فى مكان سحفق﴾ (٢)

وفى مجال تصوير الفالات العاطففة والنفسفة والمعانى المجردة بالمدركات المادفة المفسوسة، نتأمل هذه الصورة التفشففصفة الفف ففموج بالفركة وقوة التأثير فى تثبفب المعنى المقصود من التفشففة، ففقول الله تعالى فى تصوير الفاوفن من أتباع الشفاطفن وففقففرهم: ﴿واتل عفهم نبأ الذى آفناه آفاننا ففانسلف منها ففأفبعه الشفطان فكان من الفاوفن﴾.

(٢) سورة الفم: آفة ٣١ .

(١) سورة طه: آفة ٨١ .

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ
إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثَ﴾ (١)

فهذا التمثيل البادى الروعة، الظاهر البلاغة لهذا الرجل الذى آتاه الله علماً فانسلخ منه كما تتسلخ الحية من جلدها واستحوذ عليه الشيطان حتى جعله فى زمرة الضالين الراسخين فى الغواية، ولو شاء الله لرفعه إلى منزلة العلماء ولكنه مال إلى الدنيا وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة فأحطه الله أسفل سافلين. وزيادة فى تحقير الله له شبهه بالكلب فى الخسة والدناءة، وذلك الكلب الذى إن طردته وزجرته لهث، وإن تركته لهث.

وفى صورة تشبيهية أخرى لتمثيل المعنويات بالمحسوسات يقول سبحانه وتعالى فى نهى المؤمن عن الغيبة والنميمة باعتبارها من الخصال المذمومة:

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرَهُتُمُوهُ﴾ (٢)

أى يا أيها المؤمنون لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء فى غيبته بما يكرهه، ويزيد الله فى تمثيل شناعة نقيصة الغيبة وقبحها بأكل الأخ للحم أخيه وهو ميت، فإذا كان الإنسان يكره أكل لحم الإنسان فما بالك إذا كان هذا اللحم ميتاً، وأن هذا اللحم الميت لأخيه، فوجب على الإنسان كراهة الغيبة بمثل هذه الكراهية بل أشد.

٣- التجسيم المتخيل للصورة الحسية:

ونعنى بهذه الطريقة فى التصوير الجمالى للتعبير القرآنى إضفاء الحياة والديناميكية والحركة على المشاهد المصورة أياً كان مجالها أو موضوعها، مما يعلى من حرارة هذه المشاهد ويرتفع بنبض الحياة فيها فتزداد قوة تأثيرها فى نفس المتلقى وحسه ووجدانه.

وتتمثل هذه الظاهرة فى خلع الحياة على الجمادات وغير الأحياء، من أشياء وظواهر وانفعالات وعواطف واكسابها صفات الأحياء كالإحساس والتفكير والنمو والحركة، وغيرها من القدرات والملكات الإنسانية، التى «تشارك بها الآدميين وتأخذ منهم وتعطى

(٢) سورة الحجرات: آية ١٢ .

(١) سورة الأعراف: ١٧٥ .

وتبتدى لهم فى شتى الملابس وتجعلهم يحسون الحياة فى كل شئ تقع عليه العين أو يتلبس به الحس، فيأمنون بهذا الوجود أو يرهبون فى توفر وحساسية وإرهاق،^(١)

فها هى صفات التعقل والتفكير والإرادة والطاعة. وكلها صفات آدمية لا يتميز بها إلا الإنسان _ تمنح للسماء والأرض. ويوجه الله إليها الخطاب فتبادران بالجواب. فيقول تعالى: «ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ»^(٢)

والغرض هنا تصوير أثر قدرة الله تعالى فى المخلوقات وطاعتها لإرادته وامتثالها لأمره ومشيئته. فعندما عمد الله إلى خلق السماء وقصد إلى تسويتها وهى بهيئة الدخان، قال للسماء والأرض استجيبا لأمرى طائعتين أو مكرهتين فقالت السموات والأرض أتينا أمرك طائعين، فهما كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الأمر المطاع.

وها هى نفس الصفات والقدرات الإنسانية تخلع على الجمادات، حيث يهب الله صفة النطق والقدرة على الكلام إلى جهنم فيقول سبحانه: «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»^(٣)

والتمثيل فى هذه الآية لسعة جهنم وامتداد أركانها لاستيعاب جميع الكفرة والمجرمين واتساعها لهم. ففى هذا اليوم الرهيب يقول الله تعالى لجهنم هل امتلأت فتبادر بالرد قائلة هل هناك من زيادة؟

« والظاهر أن السؤال والجواب على حقيقتهما، والله على كل شئ قدير، فإن إنطاق الجماد والشجر والحجر جائز عقلاً وحاصل شرعاً، وقد ورد فى صحيح مسلم أن المسلمين فى آخر الزمان يقاتلون اليهود حتى يختبئ اليهودى وراء الشجر والحجر، فينطق الله الشجر والحجر»^(٤)

وها هى النملة الدقيقة الضعيفة تخاطب رفيقاتها بصوت ناطق مسموع، مخاطبة

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٢) سورة فصلت : آية ١١ .

(٣) سورة ق : آية ٣٠ .

(٤) محمد على الصابوجى : صفوة التفاسير ، ص ٣ ، ص ٢٤٦ .

العقلاء بعد تفكير عميق وروية وحكمة وتامرهم بما يؤمر به العقلاء بأن يدخلوا بيوتهم حتى لا يكسرهم سليمان وجيوشه بأقدامهم وهم لا يشعرون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١)

وها هو الليل البهيم المظلم بكل ما يوحى به من مشاعر وانفعالات وأحاسيس وبما يحتفظ به من لواعج الإنسان ومواجهه وهواجسه وأحلامه وآلامه، ها هو يحظى فى التصوير القرآنى بالكثير من صفات الإنسانية، ومن سمات الحياة ونبضها وحركتها وإيقاعها وحرارتها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرٌ﴾ (الفجر: ٤)

- والليل يسرع فى طلب النهار : فلا يدركه ويدور الاثنان دورة أبدية سرمدية.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ (الأعراف: ٥٤)

- والليل يسابق النهار فى سباق عظيم لا ينتهى، وفق حساب دقيق وناموس محكم.

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠)

- والليل يسجى ويقبل بظلامه الشديد يفرض ظلمته ويخيم على الكون

﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

(الضحى: ١-٢).

- والليل يعمس : يقبل حثيثاً بهدوء وترقب

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ (التكوير: ١٧)

- والليل يدبر : ويولى راجعاً بهدوء تاركاً الصبح وراء ظهره.

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ (المدثر: ٣٣- ٣٤)

أما الصبح فقد جعله الله حياً يتنفس، وينفث الحياة فى الكون ويدب النشاط فى

(١) سورة النمل : آية ١٨ .

حركة الحياة والكائنات وتضاء الدنيا بنوره وترتسم لوحة الشروق على صفحة الكون البديعة فى جمال محبب إلى النفس .

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

وها هو النهار وقد اكتسب صفة الإبصار أهم حواس الكائن الحي، حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (١)

«فى هذه الآفة استعارة عجيبة حيث وصف النهار بأنه مبصر لأن الناس يبصرون فيه فكأن ذلك صفة الشئ بما هو سبب له على طريق المبالغة كما قالوا : «ليل أعمى وليلة عمياء إذا لم يبصر الناس فيها شيئاً لشدة إظلامها» (٢)

ويتكرر نفس المعنى فى آيات أخريات حيث يكتسب النهار وعلاماته ضفة الإبصار :
﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ (٣)

وها هى النفس الإنسانية _ فى صورة جمالية روحانية أخرى _ وها هى الروح يكرمها الله ويخاطبها بكل الرضى والتكريم ويهبها الحركة الحسية رجوعاً ودخولاً :

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً (٢٨) فَادْخُلِي

فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّاتِي﴾ (٤)

وغير هذا كثير من الألفاظ والمسميات لهينات ومخلوقات جامدة يخلع عليها القرآن الصفات الإنسانية من حواس ومشاعر وإدراكات حيث يبلغ الإعجاز مداه فى اختيار الألفاظ لمواضعها، ونهوض هذه الألفاظ برسم الصور على اختلافها _ تلك الصور الجمالية التى تجسد المعنى فى ذهن المتلقى وتحقق الغرض الدينى والوقع الجمالى فى آن واحد.

فالأرض (خاشعة) و(هامدة) و(راجعة)، والعيشة (راضية)، والظل (كريم)، والغيث (يهيج)، والعين (جارية)، والنعاس (يفشى)، والريح (لواقح)، والكلمة (تكبر)، والطامة (كبرى)، والدواب (صم بكم)، والنار (تطلع على الأفئدة، إنها عليهم موصدة، فى

(٢) صفوة التفاسير : ص ٥٩١ .

(٤) سورة الفجر : آفة ١٢ .

(١) سورة يونس : آفة ٦٧ .

(٣) سورة الإسراء : آفة ١٢ .

عمد ممددة)، والجدار (يقبض)، والطير (يقبضن)، وهكذا فكل هذه الجمادات أحياء في التصوير القرآني.

٤- التقصير والإطالة في زمن الحدث،

أن المتأمل الواعي، والمدقق الفاهم عندما يستعرض آيات الكتاب الحكيم ليتبين في أسلوب تصويره وسياق تعبيره سمة جمالية هامة ووسيلة فنية بالغة التأثير لتحقيق التناسق الأمثل والنوازم بين تحقيق الغرض الديني والأثر الجمالي معاً. تلك هي خاصية تكثيف الأحداث أو تمديدها وفق ما تتطلبه طبيعة الموضوع والموقف والحدث زماناً ومكاناً، ومناسبة ومقاماً.

«بعض المشاهد يمر سريعاً خاطفاً يكاد يخطف البصر لسرعته، ويكاد اغتيال نفسه لا يلاحظه، وبعض المشاهد يطول ويطول حتى ليخيل للمرء انه لن يزول، وبعض المشاهد الطويلة حافل بالحركة وبعضها شاخص لا يريم، وكل أولئك يتم تحقيقاً لغرض خاص في المشهد يتسق مع الغرض العام للقرآن ويتم به التناسق في الإخراج أبدع التمام» (١)

ومن أمثلة تكثيف الأحداث وتقصير مدة عرضها واختصار زمن حدوثها، تلك الصورة الموجزة والمعبرة والمليخة في بلاغة لعملية خلق هذا الكون فيقول الله تعالى
«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ» (٢)

في هذا الموضع تحديداً شاءت إرادة الله وحكمته ليعرض خلق الكون بشكل موجز وفي ومضه سريعة ... الأرض وما عليها من كائنات وأحياء وجمادات وأنهار وبحار والسموات السبع ... عرض كل ذلك دون أية تفاصيل أو إطالة حيث لا يريد هنا هذه التفاصيل وتلك الإطالة، بل أرادها تقريراً جامعاً مانعاً غاية في البلاغة والتعبير.

وفي صورة جمالية أخرى خاطفة وامضة، ولكنها بليغة معبرة، تكثف الحدث وتختصر الخطوط وتنتزع التفاصيل لتحشد هذه الشحنة التعبيرية عن الموضوع، يقول

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٠٧ .

(٢) سورة البقرة: آية ٢٩ .

تعالى في تصويره لتلك الحياة الدنيا، والمتاهية القصر على طولها : ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ﴾ (١) فكهذا بسرعة خاطفة تبدأ الحياة وتنتهى، وتبرز في الصورة غطتى البداية والنهاية، بسرعة خاطفة تبدأ الحياة وتنتهى، وتبرز في الصورة غطتى البداية والنهاية فقط بينما تختصر وتختفى كل ما بينهما من أحداث وتفاصيل وعمليات. فينزل الماء من السماء على النبات فينضج ثم يصبح يابساً هكذا وبالسرعة المطلوبة يتحقق التناسق بين الصياغة والغرض وبين المقام والمقال.

وفي نموذج آخر للقصر باختصار المراحل وإدماجها، وتكثيف الأحداث وضغط امتداد الزمان واتساع المكان. يقول تعالى في تصوير جمالى بليغ وفي تعبير فى مؤثر للوحة الحياة ومداهما المتناهى فى القصر ما بين بدايتها ونهايتها : ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ (٢) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ (٣)

فهذه الحياة الدنيا بأموالها وبنينها، وبجاهها وسلطانها، ولهوها ولعبها، ولذاتها ومتعها وزينتها ومتاعها، وبما يشغل الناس من تناسل وتكاثر وتفاسخ بالأموال والرجال، والأولاد والبنات والعقار والممتلكات، وكل ما يشغل الإنسان فى مشوار حياته الطويل من لحظة ميلاده إلى لحظة وفاته، كل هذه الحياة السريعة وتتمر فى لحظة خاطفة ما تلبث أن تولد حتى تنتهى، فى أقصر ما تصور به هذه الحياة من تصورها بلفظين من (التكاثر) كبدية إلى (المقابر) كنهاية. فما أجمله من تصوير، وما أبلغه من تعبير.

وعلى الجانب المقابل تجلى ظاهرة إطالة الأحداث وتمديد زمن حدوثها بتعدد التفاصيل وتجزئ المراحل وتفتيت الأحداث عندما تتطلب طبيعة الموضوع أو تحتمه ضرورة الغرض الدينى، أو تفرضه دراما التأثير وحتمية التعبير.

وفيما يقابل الصورة الأولى التى عرضنا إليها عن مشهد نزول المطر على الزرع فى تصوير قائم على ظاهرة تقصير الحدث وإلغاء تفاصيله، يعرض لنفس الموضوع ولكن بصياغة الإطالة والتفصيل فى آية أخرى. فيقول تعالى :

(٢) سورة التكاثر: آية ١، ٢.

(١) سورة الكهف: آية ٤٥.

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَتْرَى الرُّودُقَ يُخْرَجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (١)

وترسم هذه اللوحة التفصيلية في ذهن المتلقى وخياله على النحو التالي :

الله يرسل الرياح ويصرفها بإرادته، ويجعلها بمشيئته مبشرات برحمته، فيرسلها ويحركها ويجعلها تهب على الكون فتحرك السحاب بقوة دفعها وتسوقه أمامها، فيسطه الله ويكشره وينميه وينشره في السماء ويوزعه في أرجاء الأفق كيف يشاء موزعاً هنا أو هناك بقلة أو بكثرة، خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق، أو يجعله قطعاً متفرقة داكنة السواد من كثرة مائها، تراها العين ثقيلة مدلهمة تكاد تقترب من الأرض لفرط ثقلها.

وينزل المطر من السماء من هذه السحب ينهمر شديداً أو في قطرات خفيفة، على من يشاء الله من عباده فإذا هم يسارعون بالبشر والفرح والسرور والابتهاج لشدة حاجتهم إليه.

هكذا وبهذه التؤدة، وهذا البطء، وبهذا الإيقاع المتهادى الذى تفرضه ضرورة الغرض الدينى ودراما التصوير الفنى تزداد التفاصيل وتتجزأ المراحل فى خيال المتلقى وتتمدد رقعة الأحداث على مستوى الزمان بهذه الإطالة الجمالية البديعة فى سياق التأثير الفنى والتعبير الجمالى المعجز.

وفى مقابلة تصويرية بديعة بين أسلوبى التقصير والإطالة فى التعبير القرآنى نسوق نموذجاً لأسلوب الإطالة فى تصوير موضوع بدء الحياة ونهايتها والذى سبق وأن عرضناه مصوراً بأسلوب التقصير.

فبينما عرضنا فى سورة التكاثر تصوير الحياة بدءاً وانتهاءً بكلمتين فقط (التكاثر والمقابر) فى لحظة خاطفة، تعرض الصورة التالية فى الآية لمرحلة محددة جداً من هذه الحياة وهى مرحلة تكوين الجنين فى رحم الأم، حيث تصور هذه المرحلة بأسلوب الإطالة.

(١) سورة الروم : آية ٤٨ .

فيقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَرْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ (١)

في هذه الآية يعرض الله مراحل تكوين الجنين منذ أن كان حيواناً منوياً ينطف من صلب الرجل وتستقر هذه النطفة في رحم الأم، ثم تتحول هذه النطفة من الماء الدافق إلى الدم الجامد بما يشبه العلقة، ثم يتحول الدم الجامد إلى مضغة من اللحم لا شكل ولا ملامح، ثم تصير قطعة اللحم عظماً صلبة مكونة عمود البدن ثم تستر هذه العظام وتكسى باللحم، بعد هذه الأطوار تنفخ فيها الروح فتصير خلقاً آخر في أحسن صورة وأحسن تقويم .

ولأن الآية هنا مساقاة للعبارة والعظة وتدبر عظمة الخالق وقدرته وسبحانيته المعجزة في خلقه، ولأن الغرض الديني هنا في حاجة لقوة التأثير الوجداني وتأكيد عظمة العلم الإلهي، كانت الضرورة إلى ذلك التصوير المطول، والتفاصيل الدقيقة، والمراحل المتتابعة بكل خطواتها ودقائقها التي يستغرق عرضها كل هذا الفراغ والاتساع، بالرغم من قصر هذه المرحلة المحددة من الحياة الآدمية وهذا الجزء الخاص جداً منها، وهي مرحلة الجنين وحدها دون غيرها من مراحل .

ومن المجالات التعبيرية، والموضوعات التصويرية القرآنية التي تتجلى فيها بوضوح ظاهرة الإطالة في زمن الحدث، هو تصوير مشاهد القيامة من عذاب ونعيم حيث تحتم ضرورة الترغيب والترهيب منها التعبير بهذه الوسيلة، وذلك فيما سيأتي بيانه تفصيلاً في موضوع لاحق من الكتاب .

٥- ضرب الأمثال للتشبيه والعظة:

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢)

يزخر القرآن الكريم في كثير من آياته بصور متعددة من الآيات التي ضربها الله سبحانه للناس في شتى المواقف والموضوعات سواء كانت حوادث واقعة، أم قصص مروية، أم لتمثيل معان وأفكار مجردة أم لتصوير حالات نفسية وانفعالية .

(٢) سورة النور: آية ٣٥ .

(١) سورة المؤمنون : آية ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

فى كل هذه الحالات فإن الغرض من الأمثال المضروبة فى القرآن ىركز فى اتجاهین هامین هما: تثبیت التصور الءینى وترسیخه، وءقءیم النماءج الطیبة والقءوات فى مءقابل النماءج المءءوءة والمرفوءة، كل هذا وءاك فى ظل الإءساق مع التصور الاسلامى .

وبوسع الكاءب أن ىبءأ بالإشارة إلى بعض النماءج للتصویر الجمالى من ءلال ضرب الأمثال فى القرآن .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ ومثل كلمة ءببئة كءشجرة ءببئة اءءت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴿١﴾

فى هذه الآفة مثل ضربه الله للتفرقة والمقارنة بين كلمة (الإيمان)، وكلمة (الإءراك) فمثل لكلمة الحق والإيمان _ لكونها كلمة طیبة ءسنة المنفعة _ بالشجرة الطیبة أصلها ضارب بجذورها فى باطن الأرض، وأقنانها مرتفعة وأعصانها ممتدة نحو السماء، تؤءى ثمارها ءللو المءاق كل وقت عینه الله وءءه بإراءءه لإءمارها، وبتسىیر اءالق وتكوینه، كذلك كلمة التوءىء والإيمان ءابئة فى قلب المؤمن وعمله ىصعد إلى الله فى عرشه وینال بركاته وءوابه فى كل وقت. أما كلمة الكفر الباطلة اءببئة فهى شبیهة بشجرة اءنظل ءى لا أصل لها ولا جذور ضاربة ءببئها فاستؤصلء من جذورها الضعیفة وأقلعت من ءربئها وألقیت على الأرض لعدم استقرارها وءبائ أصلها، فكذلك كلمة الباطل ضعیفة واهیة ءاحضة لا ءبائ لها لأنها لم ءعاضء بءءة، وكذلك أیضاً الكافر صاءب الكلمة اءببئة لا ىقبل عمله ولا ءصعد ءعوءه إلى الله ءعالى .

وفى مثل قرأنى أءر ءصویر بلیع وءعبسیر فنى ءءیء الأءر وءءائسیر ءال الكفار وأعمالهم . فءقول الآفة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَأَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٢﴾﴾

(٢) سورة إءراهم : آفة ١٨ .

(١) سورة إءراهم : آفة ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ .

إن أعمال الكافرين التي عملوها في دنياهم على غير أساس من الإيمان، يتغنون الأجر من الله، هذه الأعمال يحققها الله كما تمحق الرياح العاصفة الشديدة، التي تهب في يوم عاصف _ كومة الرماد، وهؤلاء الكافرين لا يستطيعون تحصيل ثواب ما عملوا من البر لإحباطه بالكفر ولا ينتفعون بشيء منها إذ لا يجدون لها أثراً شأنهم في ذلك شأن صاحب الرماد الذي طيرته الرياح لا يحصل على شيء منه ولا يجد له أثراً.

وفي هذه اللوحة تصوير غاية في الجمال ودرامية التأثير، حيث ترسم الرياح بشدة هبوبها وما تنشره من عواصف وأتربة في هذا الجو المكفهر الذي يشتد فيه البرد وتنعدم فيه الرؤية وتختفى فيه الشمس وتظلم الدنيا وتكتسى اللوحة كلها ألواناً ضبابية داكنة، ويتطاير الرماد ويختلط مع تلك الموجات الهوائية ويتلاشى ويختفى أثره ... وهناك في طرف اللوحة يبدو على بعد صاحب الرماد وهو يتطلع في دهشة ولوعة وألم صوب اتجاه الرياح، يعاني الخسران والندم على ما ضاع منه.

وفي مثل آخر تصوير للكفار وأحوالهم وأعمالهم وجزائهم تقول الآية :
 «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (١)

وفي هذه الصورة يجعل الله لأهل مكة مثلاً يعتبرون به، لأن أهل مكة كانوا يعيشون في الأمن والخصب والطمأنينة ثم أنعم الله عليهم بعظيم نعمه محمد (ص) فكفروا به وبالغوا في إيذائه فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام (٢)

ومثل أهل مكة أهل أحد القرى كان أهلها في أمن من العدو، وطمأنينة من ضيق العيش يأتيهم رزقهم رغداً واسعاً من كل مكان فجحداوا نعم الله عليهم ولم يشكروه بطاعته وامتثال أمره فعاقبهم الله بالمصائب التي أحاطت بهم من كل جانب وجعلتهم يعانون الجوع والخوف من بعد الغنى والأمن بسبب تماديهم في الكفر والمعاصي.

(٢) صفوة التفسير : ص ١٤٦ .

(١) سورة النحل : آية ١١٢ .

وتتجلى الصورة الجمالية فى هذا التعبير بالتجسيم الحسى الذى يجسد المعنى ويؤكد التأثير الدرامى فى نفس المتلقى وذلك حين يصور العذاب فى صورة حسية فيجعلهم يذوقون مرارته بأفواههم ويلبسونه بالستهم وأسنانهم ويجعل الله من الجوع لباساً لهم يلبسونه ويحكم عليهم ويضيق بهم فلا يستطيعون منه فكأكاً.

وفى صورة أخرى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١)

فهذا المثل مضروب للتفريق بين الله الإله الحق تعالى، والأصنام الجامدة الباطلة، فالوثن لا ينطق بخير ولا يقدر على شىء لأنه إما حجر أو شجر، وهو بذلك يشبه الإنسان الأبكم الذى لا ينطق فهو قليل الحيلة فاقد القدرة، ثقيل الظل والحركة، عالة على سيده، فحيثما أرسله فى شىء لم ينجح فى مهمته لأنه أحرص ضعيف بليد ... فهل يتساوى ذلك الأبكم مع ذلك الرجل السوى السليم، البليغ المتكلم بأفصح لسان وأبلغ بيان وهو على طريق الحق والإيمان والرشد والاستقامة مستنير بنور القرآن مستهدياً بهدى الإيمان.

«وإذا كان العاقل لا يسوى بين هذين الرجلين، فكيف يمكن التسوية بين صنم أو حجر وبين الله سبحانه وتعالى وهو القادر العليم الهادى إلى صراط مستقيم» (٢)

والى مثل آخر ضربه الله للكافرين برجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر، ورثا مالا عن أبيهما فاشترى الكافر بماله حديقتين فى حين أنفق المؤمن ماله فى سبيل الله ومرضاته حتى نفذ ماله فعيّره أخوه بفقره، فأهلك الله مال الكافر الذى أبطرتة النعمة، وأقر الله عين الفقير بإيمانه وقناعته ورضاء نفسه.

وتصور الآية هذه الخلدجات النفسية فى الوجدان البشرى وفى النفس الإنسانية تصويراً جمالياً غاية فى التأثير وغاية فى بلاغة التعبير، فهذا الغرور والتكبر والصلف

(١) سورة النحل: آية ٧٦ .

(٢) مختصر بن كثير، عن صفوة التفاسير، ص ١٣٦ .

والتعالى الذى فيه الرجل الغنى وهو فى أوج زهوه وبطره وازدهانه يقابله كل مشاعر الإيمان والرضا والقناعة والعزة بالإيمان لدى صاحبه المؤمن الفقير، وهو مع فقرة لا يتردد بكل ثقة فى نصح صاحبه إلى جادة الطريق ولو بالتقريع والتوبيخ. وتقول الآية تصويراً لهذه المشاهد المتتالية فى لوحة الصالحين :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحُ مَاؤها غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿١﴾

هذا هو منطق الوجدان والجدل التصويرى فى التعبير القرآنى، وتلك هى الأنماط الجمالية فى التصوير، هذا المنطق الخاص الذى يختلف عن المنطق الذهنى التقليدى فى التعبير كوسيط اتصالى مألوف، ذلك الذى ينقل المعانى والأفكار والحالات النفسية فى صورتها الذهنية التجريدية ويعبر عنها تعبيراً لفظياً تقريرياً مجرداً. أما القرآن فيعبر عنها تعبيراً حسياً تصويرياً مجسماً ومتخيلاً، وإن كان لا يخلو من منطق الذهن إلا أنه ليس منطقاً الوحيد.

(١) سورة الكهف : الآية من ٣٢ ، ٤٣ .

ثالثاً: نماذج من التصوير الجمالى فى القرآن

القرآن والجمال فى تصوير خلق الكون

يقول العالم الشهير (اينشتاين) : «إن أعظم خاطرة يمكن أن تجول فى ذهن الإنسان هى ما يتراءى له حين يقف يتأمل فى هذا الكون، فيستطيع أن يرى جمالا ما بعده جمال وكما لا ما بعده كمال ودقة ما بعدها دقة، إن هذا الموقف عندى هو موقف التعبد عند الخلاق» (١)

ويتجلى مفهوم العقيدة الإيمانية فى أبسط صورها ومعانيها فى محاولة تفسير الإنسان للظواهر الكونية من حوله ومعرفة مصدرها ومنشؤها ومحركها.

«ومنذ القدم حاول الإنسان البدائى فهم تلك الظواهر الكونية والتقرب إليها خوفاً منها ومن تدميرها له، فحاول السيطرة عليها بإقامة بعض الطقوس التى كان يعتقد أنها تبعد عنه شر تلك الظواهر وتجعلها مطيعة له وتجعله مسيطراً عليها آمناً لشرها، وظل الإنسان كذلك بعد تكوين المجتمعات وفى عصور الحضارات، فلقد تفاعل المصرى القديم مع تلك الظواهر بطقوس ومعتقدات خاصة وكل ما كان يفعله للتقرب إلى الظاهرة ليأمن شرها، وقد تناول علاقة الظواهر بالأساطير القديمة وغيرها» (٢)

وعندما يتطلع الإنسان بنظره إلى السماء من فوقه وإلى الأرض من حوله يرى مظاهر إبداع الله تبارك وتعالى فى خلق هذا الكون العظيم وظواهره الحاضرة التى لا تغيب عن المتفكرين فى هذا الملكوت الرائع. ولقد خلق الله هذا الكون العظيم بظواهره المتعددة ودعانا لتدبر عظيم قدرته فى الخلق.

ولا تنتهى تلك الظواهر الكونية عند الظواهر التى تراها العين المجردة، بل بما تكشف عنها معطيات العلم الحديث من وسائل الرؤية المكبرة والمقربة. إن النظام هو آية من آيات الله فى صنع الكون وعظيم خلقه، فكل ما فى هذا الكون قد خلقه وفق نظام محكم، ويمارس دورته ومسيرته وفق هذا النظام المحكم، وتعمل كل هذه العناصر والظواهر فى علاقاتها مع بعضها وفق ناموس دقيق ونظام محكم كذلك. فالكون كله: نجومه وشمسه، سماؤه وأرضه، ليله ونهاره، بحاره وأنهاره، رياحه وبرقه، وكل ما نعلم

(١) زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن، ط ١، ص ٥٤ .

(٢) شرين خيرى أحمد: رسالة دكتوراه، مرجع سابق، ص ٦ .

من خلق الله وما لا نعلم، وكل ما ندركه بحواسنا أو نعرفه بعقولنا ... كل يسير وفق إرادة الله ومشينته، وكل يسجد لله ويسبح بحمده ويدين له بالطاعة والولاء، ولولا أدانتها لله لهوت وارتطمت وتخبطت على غير هدى.

ومن معجزات القرآن الكريم - الذى دعا لتوحيد الخالق عز وجل، وسن المنهج الذى يسترشد به البشر لتوجيه النفس نحو السمو والرقى - أنه يكشف عن حقائق علمية وكونية لا يرتطم بها العقل البشرى عند قراءتها، ولكنه يتوقف عندها ليتفهمها عندما يصل إليها العلم الحديث بأحدث مبتكراته ومكتشفاته.

فما أروع بلاغة القرآن الكريم وما أروع تصويره، وما أقل ما توصل إليه الإنسان من تكشف لحقائق قد أشار إليها القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان.

وما أكثر الآيات القرآنية العظيمة التى تدعو إلى توجيه العقل نحو الظواهر الكونية، والتى يقدم بها القرآن الكريم الأدلة المادية على وجود الله الخالق البارئ المصور الذى أبدع كل شىء وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن البشرى من صور لهذا الكون، هو التساؤل عن الصورة التى كان بها الخلق الأول للكون وما هى ملامح تلك الصورة وكيف كانت بداية هذا الخلق ؟

ولقد حاول علماء العصر الحديث بمختلف علومه وفروعه - التوصل إلى صورة الخلق الأول للكون وتفسير بداية هذا الخلق تفسيراً علمياً، فذهب بعضهم إلى نظرية الانفجار العظيم) التى تقول:

«بدأ الكون بانفجار جرم أولى على الطاقة والكثافة غاية العلو - مما تقف عن بلوغه كل قوانين الفيزياء المعروفة - تجعله فى حالة حرجة، ينفجر هذا الجرم بأمر الله تعالى ويتحول إلى غلالة من دخان، يخلق من هذا الدخان الأرض وباقي أجرام السماء، وهذا الدخان يخلق منه دوامات تجمع كما من المادة والطاقة حول مراكز الجاذبية، ويظل هذا الكم من المادة والطاقة فى تكدس على ذاته حتى يتشكل بقدرة الله على هيئة أجرام السماء المختلفة» (١)

(١) زغلول النجار: من آيات الإعجاز العلمى فى القرآن، ط ١، ص ٤٢ .

أى أن الله سبحانه وتعالى استوى إلى السماء وهى ما زالت مع الكون كله سحابة من الدخان، ولأن كل شىء هو فى علمه سبحانه فقد أمر الله السموات والأرض بالتكون والظهور فى الوجود.

وذهب فريق آخر إلى تفسير خلق الكون بما أطلقوا عليه (الانشطار الكبير) فيما قرروه من «أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه كان كيانا سديما غير متميز بعضه عن بعض، ثم أخذ يتميز ويتطور بفعل الجاذبية العامة حتى صار إلى ما هو عليه، ولا تزال السدم الأبله منتشرة فيه على أبعاد فلكية هائلة» (١)

كما راحوا يؤكدون فكرة الانشطار : «واندلعت المادة من النواة بعد فتقها فى شكل موجات كثيفة ومتتابعة من الجزئيات واندفعت الطاقة أيضاً فى شكل موجات متتابعة من الإشعاعات الغزيرة، وهكذا بدأت كل عناصر المادة والطاقة فى الاندفاع من النواة فشكلت سحابة كونية بدأت تنمو بشكل سريع جداً إلى أن تحولت إلى سحابة من الدخان ملاً الكون كله، ومن هذه السحابة الكونية تشكل ببيان الكون كله» (٢)

ثم يذهبون فى تفسير تمدد الكون واتساعه حتى يبلغ مداه ثم عودته إلى التجمع مرة أخرى لبدأ منه الخلق الجديد، وذلك فيما أسموه (بنظرية الانسحاق الشديد) حيث «أن عملية اتساع الكون لا يمكن أن تستمر إلى ما لا نهاية فسوف يأتى على هذا الكون زمان تتساوى فيه القوتان : القوه الدافعة إلى الخارج بالانفجار والقوه اللامة إلى الداخل بالجاذبية، ثم مع ضعف القوه الدافعة تبدأ قوى الجاذبية فى تجمع الكون مرة أخرى فى جرم واحد مشابه تماماً للجرم الابتدائى الأول الذى بدأ منه الخلق ويتفجر هذا الجرم ويتحول إلى غلاف من الدخان ويخلق من هذا الكون أرض غير الأرض وسموات غير السموات» (٣)

ومهما كانت نظريات العلماء المحدثين وتفسيراتهم فهى تدور فى فلك ما سبق إليه القرآن الكريم وما بينته آياته المحكمات منذ قرون من الزمان وستظل هذه الآيات هى

(١) محمد أحمد الغمراوى : الإسلام فى عصر العالم ، دار الإنسان، القاهرة ، ١٩٩١ ، ص ٢٤٩ .

(٢) عادل حسين : الكون وقصة الليل والنهار، ١٩٩٨ س ١٤ .

(٣) زغلول النجار: نفس المرجع ص ٤٥ .

أصل التصوير والتعبير عن هذا الخلق ... هذا التصوير الأكثر إقناعاً والأبلغ تأثيراً،
والأكثر جمالاً، والأقوى في مخاطبة الحس والذهن والعقل والوجدان.

وبوسع الكاتب أن يشير هنا إلى نماذج من الأنماط الجمالية في تصوير القرآن خلق
الكون والمظاهر الكونية المختلفة.

يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (١)

في هذه الآية حث للعباد على التأني في الأمور فإن الله القادر على خلق جميع
الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام، وكان العرش على الماء قبل خلق السموات
والأرض فما كان تحته من خلق حيث لم يكن الوجود أكثر من عالم الماء ومن فوقه
عرش الله.

ويقول تعالى : (٢)

﴿ أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾

﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

تبين الآيات الكريمة كيف بدأ خلق الكون ثم تتابع مراحل عملية الخلق وتفاصيل
تهذيب صورة الخلق وتعديلها بيد قدرته تعالى، فيبين الله في الآية الأولى أن السموات
والأرض كانتا شيئاً واحداً ملتصقين ببعضهما ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث
هي وأقر الأرض كما هي، وقال بعض المفسرين، أن الله فصل بين السماء والأرض
بالهواء وأن السموات كانت رتقاً لا تمطر وكانت الأرض رتقاً لا تثبت ففتق هذه بالمطر
وهذه بالنبات.

(١) سورة هود : آية ٧ .

(٢) سورة الأنبياء: آية ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ .

وفى هذه الآية مقابلة لفظية بليغة حيث التصوير بلقطتين متحدثين فى الجرس متضادتين فى المعنى، وهما كلمتى (الرتق) و(الفتق) والرتق فى اللغة هو الجمع والضم والالتحام والتكديس والالتصاق، وهذا ما كانت عليه السماء والأرض قبل انفصالهما، أما الفتق فهو فى اللغة يعنى الانشقاق والانشطار والانقسام والانفصال، وهى مرحلة انفصال السماء عن الأرض وما يتبعها من توسع فى الكون.

ثم جعل الله الماء الذى فيه أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات، وخلق من هذا الماء كل شىء حى على الأرض، كما خلق منه أيضاً كل ما فى أعماق البحار والأنهار من مخلوقات وكائنات حية.

وجعل الله فى الأرض جبالات ثابتة لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار. وجعلها رواسى ذات جذور ممتدة إلى أعماق كبيرة فى الأرض، ثم جعل فيها طرقاً فسيحة ومتشعبة ومسالك وثغراً يتحرك فيها الناس ويهتدون إلى مقاصدهم فى الأسفار ويسلكونها من مكان إلى مكان.

وجعل السماء كالسقف للأرض محفوظة بالنجوم، ومحفوظة من الوقوع والسقوط مرفوعة على الأرض بلا عمد.

وخلق بقدرته تعالى الليل والنهار، هذا بظلامه وسكونه وذاك بضياؤه وأنسه يطول هذا تارة ويقصر هذا أخرى، وخلق الشمس والقمر وكل هذه المجرات تجرى وتسير بسرعة كالسباح فى الماء، وكل يجرى فى مجاله الذى قدره الله له ويسبح فى فلكه لا يحيد عنه.

هذه لوحة الكون صورتها يد الخالق المبدعة ورسمتها الريشة الإلهية القديرة تصويراً جمالياً معجزاً ينطوى على كل وسائل الإبداع والجمال، من حركة وإيقاع وتناسق وألوان وظلال ووحده واتزان وتنوع ما بين اللمسات العريضة والومضات الدقيقة وما بين الإجمال والتفصيل.

فهاهى قدرة الخالق عز وجل تفصل بين السماء والأرض وتبدو السماء ممتدة بلونها الأزرق، وفى لمسات عريضة ومساحات شاسعة تبدو الأرض منبسطة بلونها الأخضر تتوسطها الجبال الشاهقة فى كتل ضخمة بلونها الأصفر بينما ترسم فى مساحات

أخرى وسط اللوحة البحار والأنهار بما صورته قدرة الخالق من مخلوقات وكائنات بحرية بمختلف أشكالها وألوانها وحركاتها في شتى الاتجاهات _ تكسر الهدوء البادى على اللوحة وتبعث فيها الحياة والحركة، ويجعل المشهد ويكمله سطوع الشمس بنورها الساطع وأشعتها الذهبية التى تنشرها على الكون .. ويمر الزمن ساعة بعد ساعة ويحين وقت الغروب فيولج الله النهار فى الليل الذى يغشى الكون وينشر ظلامه فإذا بالقمر يبير السماء وتنتشر النجوم كاللآلى على صدر الكون.. ما أجملها من مشاهد، وما أبلغه من تصوير يدغدغ الحواس ويهز الوجدان ويبعث المسرة والمتعة فى النفس.

وترسم يد القدرة الإلهية لوحة أخرى متتابعة المشاهد تصور خلق الكون تصويراً جمالياً بديعاً ومبدعاً.

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

فخلق الله الأرض فى يومين، وجعل فيها جبالاً ثابتة شوامخ، وأكثر خيرها من ماء وزرع وضرع، وأنهار وأشجار ودواب، ففيها أرزاق الناس ومعاشهم، كل ذلك فى أربعة أيام كاملة لا زيادة فيها ولا نقصان، وعمد إلى خلق السماء وتسويتها وهى بهيئة الدخان، وزينها بالنجوم، ثم أمر السماء والأرض بالاستجابة لأمره فاستجابا له طائعين.

إنها مشاهد متوالية ومتتابعة تهز النفس وتلذذ الحواس وتلهب الخيال وتسر الوجدان فى له من تصوير ربانى جميل ويا له من تعبير إلهى مبدع، ويا له من جمال سبحانى أخاذ.

ويختتم الكاتب هذه الإشارات إلى التصوير الجمالى المبدع والمعجز خلق الكون

(١) سورة فصلت: آية ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ .

باليد الربانية القادرة ومشيعته الحكيمة بهذه الإشارة الإلهية للوحة إعادة الخلق حيث يقول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (١)

فيوم يطوى الله السماء طياً كما تطوى الورقة في الكتاب، أو كما تطوى الصحيفة على ما كتب فيها، وكما بدأ الله الخلق يعيده مرة أخرى، ويحشر الناس حفاة عراة على الصورة التي بدأ الله خلقهم فيها، ولعل ، هذا التعبير في هذه الآية يذكرنا بما سبق الإشارة إليه مما أطلقنا عليه التصوير بالتقصير، والتكثيف في زمن الحدث دون استعراض أية تفاصيل أو مراحل فهذا الكون بما عليه من ظواهر ومخلوقات والذي خلقه الله سبحانه وتعالى في ستة أيام ثم أستوى على العرش ... تأتي لحظة حاسمة يعلمها الله بمشيئته وإرادته فيطوى فيها صحيفة الكون كله وتنتهى الحياة من الوجود بهذه السرعة الفائقة التي تطوى بها صحيفة الكتاب على كل ما فيها من حروف وكلمات ومعلومات وأخبار ... ثم يعيد الله الخلق مرة أخرى كما خلقه أول مرة.

سبحان الله الخالق البارئ المصور ... القادر العليم، المبدع البديع.

القرآن... والجمال في مشاهد الطبيعة

الإسلام هو دين التربية الشاملة المتكاملة للإنسان حساً وجسداً، وعقلاً ونفساً، وروحاً ووجداناً، وهو في ذلك يخاطب الإنسان خطاباً متعدداً من زوايا شتى تنبه الحس وتوقظ الشعور، وتفتح البصيرة، وتهز الوجدان إلى حقيقة هذا الوجود، فتارة يوجه القلب البشرى إلى آيات الله في صفحة الكون، وتارة يوجهه إلى علم الله الشامل الواسع، وتارة يوجهه إلى عظمة الله وقدرته في خلق هذا الكون وفق نظامه المحكم وناموسه الدقيق.

على أن هذه الآيات الكونية التي تحيط بالنفس البشرية في كل الأنحاء قد لا يلتفت إليها الإنسان لطول الألفة والعادة. فجاء القرآن الكريم حافلاً بهذه الدعوة للإنسان أن يفتح بصيرته على آيات الكون البديعة والمعجزة والمذهلة، حتى يدرك من ورائها يد

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٤ .

القدرة الاخلاقية المبدعة من جهة، ويستشعر ما تنطوى عليه من مظاهر الجمال الأخاذ الذى يلذ الحواس ويمتع الروح والوجدان من جهة أخرى، ومن ثم تتوجه النفس إلى المزيد والمزيد من التسبيح بحمد الخالق وشكوه.

«والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء وإلى جمال الكون كله، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حينئذ يصل إلى النقطة التى يتهدى فيها للحياة الخالدة فى عالم طليق جميل برئ من شوائب العالم الأرضى والحياة الأرضية، وأن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهى فى الكون، تلك هى اللحظة التى تهيوه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهى ذاته ويتملاه»^(١)

فالجمال يتبدى فى كل كائنات الكون وظواهره ومشاهده. وحين يتفتح حس الإنسان لهذا الجمال وتلتقى نفسه به وتشف وتصفو_ حينئذ تلتقى النفس البشرية بالحقيقة الإلهية لهذا الموجود.

وجمال الطبيعة من أروع ألوان الجمال التى تهش له النفس بفطرتها وتلتقى روحها بروحه عندما ينفذ شعاعه إلى منافذه المختلفة ومساربه الخفية، ويحدث أثره فى كيانها البشرى. والنفس الإنسانية تعيش فى القرآن مع الكون فى لقاء دائم جميل حبيب، لقاء يلذ النفس ويمتع الحس ويطلق الروح.

«إن أسلوبه الساحر، وجوه المشرق، وروحه الصافية، لتنقل الإنسان نقلاً من إلفه وعاداته وتهزه ليستيقظ، تلمس برفق أعصابه المكشوفة، فتعطيه الشحنة كاملة ينقلها إلى مركز الحس بكامل تدفقها، ومن ثم يعيش الأشياء كأنها تحدث لأول مرة ويستمتع بسحر هذه الجدة ومتاعها العجيب»^(٢)

والطبيعة هى المعلم الأول للإنسان، فمن خلال التقائه بها تفتح حواسه وتستيقظ مشاعره وتنشط بصيرته وتنمو مداركه وتتضاعف خبراته وأفكاره ومفاهيمه.

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن : ج ٢٢ ، ص ١٤ .

(٢) محمد قطب: منهج الفن الإسلامى، ص ٢١٤ .

وفى ضوء الظروف الطبيعية والمناخية تنمو وتتدرب الحواس الإنسانية على استقبال ما تطرحه الطبيعة من طاقات متباينة فى صورتها وطبيعتها: حجوم وأشكال وأضواء وظلال وملامس ناعمة وخشنة، وألوان باهته وصارخة تتفجر وتشكل على هينات الموجودات والمخلوقات من أحياء وجمادات متحركة أو ثابتة أو مترددة بين السكون والحركة. هذه الطاقات يدركها الإنسان فى بادئ الأمر بحواسه المختلفة ليألف بعضها، وينفر من بعضها ويجرى حواراً معها فى محاولة للفهم والاستيعاب والاختيار.

«وتلك التغيرات التى يستقبلها بالحواس التى ينمو عقله خلال التحوار معها تنتهى به لحالات من الإحساس بالرضا والإحباط ومن الاطمئنان والخوف ومن الميل والنفور، وكلها حالات وجدانية لها تأثيرها الحاسم على نمو وتاصيل وتدعيم المعانى وعلى تحديد اتجاهات الميل والتفضيل والاستمتاع، ومن تلك الزاوية تصبح طاقات الطبيعة ومظاهرها المتغيرة عوامل أساسية للنمو الحسى والعقلى والوجدانى وهى عوامل مؤثرة فيما يتسرب بداخل عقله ونفسه.. من خبرات وميول تمتزج معاً بطريقة لا شعورية لتصطبغ بها رؤيته للجمال» (١)

« وقد شاء الله جلت قدرته أن تكون الطبيعة هى الجامعة الكبرى التى تخرج أفواج العلماء والفنانين فى الوقت ذاته : العلماء الذين يتفحصون ويجربون ويكتشفون من أجل رقى العلم الانسانى وإدراك السنن والنواميس الطبيعية التى يقام عليها صرح العلوم التطبيقية المختلفة ... والفنانين الذين يعاينون ويلمسون وينظرون ويسمعون فتهزهم المعانية والنظر والسماع وتحيلهم إلى قلوب تنبض عشقاً وهياماً وشعراً، وعقول تند عن مرآتها النفعية المادية القريبة فتحطم الجدران وتنطلق إلى ما وراء الأشياء، وحدث ينقل الأحاسيس من مراتبها الأولى إلى أجهزة فذة عجيبة للتفاعل مع ما فى الكون من قيم وحقائق وأشكال غابت عن الأسماع والعيون أول مرة فجاء (العيان الفنى) لكى يميزق عنها الأستار ويعيد إليها صفاءها الأول» (٢)

وفى المنظور الإسلامى تتضمن الطبيعة قوى روحية ذات مستويات مختلفة إلى

(١) إيهاب بسمارك: الأسس الجمالية والإنشائية للتصميم، ص ١٥ .

(٢) عماد الدين خليل : شئ عن الموقف الجمالى فى الإسلام، مجلة العربى، العدد ٢٣٨، سنة

١٩٧٨ .

جانب القوى المادية المحسوسة، حيث كل الأشياء لها قيمتها وقدرتها على التعبير الروحي، وأن كل المخلوقات لها جمالها الذي يميزها والذي يفصح عن القوى الإلهية التي تعمل فيها والذي يبين عن القدرة الإبداعية في خلقها. كما أن مظاهر التعبير والحركة والنمو وعدم الثبات على حال، هي أيضاً مظاهر لجمال الطبيعة لأنها تدل على القدرة الإلهية التي أبدعتها والتي من أهم صفاتها الثبات والبقاء والخلود والأبدية والسرمدية.

ولنا أن نلمس بعضاً من مواضع التصوير القرآني للجمال في مشاهد الطبيعة الكونية. وهنا يرى الكاتب ضرورة التوقف قليلاً مع القارئ الكريم لتحديد بعض المطلقات التي يبدأ منها هذه الخطوة.

أولاً : تتعدد مظاهر الجمال في الطبيعة، وبالتالي يحتشد القرآن الكريم في كثير من آياته بمظاهر التعبير الجمالي والتصوير الفني لمشاهد الطبيعة وذلك إلى الحد الذي لا تتسع معه الرقعة المتواضعة لهذا الكتاب، حيث يحتاج الحديث عن جميع هذه الصور إلى أكثر من كتاب، الأمر الذي يحتم ضرورة الاكتفاء بالإشارة إلى نماذج مختارة من هذه المشاهد ليس على سبيل الإحصاء والحصص، وإنما على سبيل التمثيل بقليل من كثير.

ثانياً : قد يتناثر الموضوع الجمالي في العديد من المواضع حيث يرد فيها كومضات خاطفة في سياق موضوعات مختلفة ومتنوعة. وحيث أن ما يهمنا هو وحدة الموضوع الجمالي فقد اتبع الكاتب أسلوب تجميع المشهد الطبيعي موضوع التعبير الجمالي من عدة آيات أو عدة سور من سور القرآن بصرف النظر عن ترتيبها أو وحدة موضوعها واتصالها بعضها ببعض وذلك انطلاقاً من الحرص على وحدة المشهد التصويري واكتمال الصورة الجمالية المعبرة رغم اختلاف الزمان والمكان والموضع والمقصد.

ثالثاً : يقتضى منطق البحث العلمي أن يحدد الكاتب المنهج البحثي الذي سوف يستخدمه في تناول الصورة الجمالية في التصور القرآني لمشاهد الطبيعة بالتحليل، وفي ذلك يشير الكاتب إلى أنه في محاولة التحليل الفني والجمالي لهذه المشاهد سوف يتم التركيز على جانبيين هامين هما :-

الجانب الأول: جماليات التصوير التشكيلي:

١- العناصر الفنية التشكيلية:

وتلك هي عناصر التشكيل الفنى والجمال التى يتألف منها المشهد الطبيعى والتى يكمن فيها جماله، والتى يمكن تحديدها فيما يلى :-

• الهينات الطبيعية: بما تتضمنه من أشكال وحجوم ومساحات وبما يميزها ويحكمها من عناصر التشكيل الفنى من علاقات خطية وملمسية، وعلاقات لونية من تدرج وتوافق وانسجام أو تباين وتضاد وتنافر، وعلاقات الأضواء والظلال بتوزيعاتها وانحسارها وانتشارها، وكذا عنصر الفراغ التشكيلي النافذ وغير النافذ واخيط وعلاقة هذا الفراغ السلبي بالأشكال الموجبة حوله، كذلك عنصر الحركة الفعلية والإبهامية المنتظمة وغير المنتظمة للأشكال والهيئات وما تحدثه من أثر جمالى نتيجة هذه الحركة وتنوعاتها وإيقاعاتها، بالإضافة إلى الأسس البنائية الإنشائية للأشكال والعناصر الطبيعية وما يحكمها من قوانين تركيبية متنوعة كالتماثل والتبادل والتشابه، والنظم المحورية والإشعاعية والحلزونية وغيرها من النظم البنائية.

• التكوين الضئى: ويقصد به ذلك القالب الفنى التى تصاغ فيه هذه الهينات والعناصر الطبيعية التى يتألف منها المشهد صياغة فنية تشكيلية جمالية من خلال عمليات التوزيع والترتيب والتجاور والتراكب والتماس، ومن خلال العلاقات الجمالية لعناصر التشكيل، وما تحدثه هذه الصياغات - بما تتضمنه من علاقات وعمليات - من أثر جمالى فى النفس.

٢- القيم الجمالية:-

وهى ما يطلق عليها الأسس الجمالية فى الفن والطبيعة التى تتحدد بأربع خصائص هى (الوحدة _ الاتزان _ والإيقاع _ والتناسب) تلك المصطلحات التى تشير إلى الخصائص الجوهرية والعامّة التى أدركها الإنسان منذ بداية وجوده على الأرض فى ذاته وفى طبائع الكيانات المتنوعة المحيطة فى الطبيعة.

«فقد أدرك الإنسان أن الوحدة العضوية فى تلك الكائنات قانوناً عاماً، وأدرك أن

التوازن حالة أساسية وضرورة في نفس الوقت، واستشعر التغيرات التي تحدث داخل ذاته وواجهته الطبيعة بما فيها من مظاهر وكيفيات للتغير، فأحس أن لكل شيء إيقاعاً يميزه ونسباً تحكم تكوينه، وأصبحت تلك الخبرات مخزوناً لا شعورياً داخل نفسه وتحول إحساسه الفطري نحو قوانين الطبيعة إلى قيم أساسية توجه إحساسه الجمالي تجاه الأشياء»^(١)

وتلك الخصائص والقيم الأساسية هي بمثابة المعايير التي يمكن أن نقيس بها القيمة الجمالية لموضوع الإدراك الجمالي سواء كان فناً أو طبيعة، وهذه القيم يجب أن ننظر إليها نظرة كلية تكاملية باعتبار أن هذه القيم متداخلة ومتراصة ومتفاعلة تعمل معاً في الموضوع الجمالي دون انفصال.

وهذا الجانب الأول من منهجنا في التحليل الجمالي لمشاهد الطبيعة والذي يتعلق بجماليات التصوير التشكيلي في النص القرآني، هو ما يمكن للمؤلف أن يدلي فيه بدلوه _ إدلاء متواضعاً _ بحكم طبيعة تخصصه في مجال الفن التشكيلي وجماليات فنون الشكل، وذلك في حدود ما تسمح به رقعة هذا الكتاب.

الجانب الثاني: جماليات التعبير اللغوي في النص؛

ويقصد بها الصياغة اللغوية للصور الجمالية في الطبيعة، والتي يعبر بها النص القرآني عن المشهد موضوع الإدراك الجمالي وذلك باستخدام أدوات التعبير اللغوي وهي ألفاظ اللغة العربية ومفردات أبجديتها، وطرق الصياغة اللغوية من ترتيب الحروف وتركيب الكلمات وتأليف الجمل، وما يحمله النص القرآني كذلك من جماليات التعبير اللغوي ومحسناته البلاغية، وما يتضمنه من تشبيهات واستعارات وكنيات ومقابلات لفظية وسجوع وغيرها من فنون البيان والبديع.

وهذا الجانب الذي يتعلق بجماليات التعبير اللغوي عن المشهد الطبيعي في النص القرآني، إنما يتعدى اختصاص المؤلف حيث أن لهذا المجال متخصصون من أساتذة اللغة العربية والبلاغيين الذين هم أقدر من يتصدى للخوض في هذا الموضوع، ذلك ما جعل المؤلف يتوخى الحرص والحذر، فهو عندما يتعرض إلى هذا الجانب في التحليل

(١) إيهاب بسمارك: المرجع السابق، ص ١٥١ .

الجمالى للمشاهد إذ يفعل ذلك بقدر كبير من الاستحياء بما يمس الموضوع مساً خفيفاً لا يخرج عن انطباع جمالى تذوقى عام لا يرقى إلى اقتدار المتخصص .

الموضوع الجمالى الأول: (الظلام والنور والضوء والظلال)

« فى الليل كل البقرات سوداء . هذا ما قاله الفيلسوف الألمانى (هيجل)، فلولا ضياء النهار لما كان باستطاعة الإنسان أن يميز بين الأشياء ولانعدمت تموجات الظلال وشاعريه الأشعة الناعمة عند بزوغ فجر باسم وغروب شمس شاردة .

إن أول من وجه الانتباه إلى حقيقة العلاقة بين الضوء والأجسام المرئية هو عالم الفلك والبصريات العربى المسلم أبو على الحسن بن الهيثم، حيث أكد أن الشئ لا يضى بذاته بل بإشراف نور عليه، والإبصار لا يتم إلا بتلقى العين للأشعة المنعكسة عن الأشياء المضاءة» (١)

وعلى لوحة الكون البديع يلعب الضوء دوراً بارزاً فى رسم الكثير من المشاهد الجمالية وذلك من خلال تغير مساراته وحركته على ساحة الكون وصفحة السماء على مدار الزمن ومرور الوقت محدثاً حالات متقابلة من الظلمة الحالكة إلى النور المتوهج ومن الليل الدامس إلى النهار الموضء، ومتدرجة ما بين هذا وذاك . منتشراً على السطوح فيغمرها ويذيب مادتها، أو ساقطاً على الأجسام والهيئات أو نافذاً خلالها منشئاً ظلالها الساقطة أو المحصورة .

ويتجلى جمال التصوير القرآنى لحالات حركة الضوء على لوحة الكون البديعة فى تلك المقابلة التشكيلية المبنية على التباين الجمالى بين الأبيض والأسود عندما يقابل القرآن الكريم بين الظلام والنور .

وها هو ما ترسمه الآيات القرآنية عن الظلمة، فنقول فى وصف حالة الكآبة والظلام النفسى التى يورثها الكفر فى نفوس الكافرين «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩)» أو كظلماتٍ فى بحرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ

(١) أحمد رأفت : الرسم بالألوان فى القرآن، دار الجميل، ١٩٩٦، ص ٩٧ .

مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿١﴾

فعلى صفحة الصحراء المنبسطة الممتددة على مدى البصر .. وفي وقت الظهيرة في منتصف النهار .. وفي شدة الحر والشمس المحرقة يسقط شعاع الشمس على الأرض، وبعملية فيزيائية على شبكة العين يحدث هذا الأثر الخداعي للإدراك البصرى بادياً للعيان وكأنه يرى ماء جارياً ينساب ويفترش الأرض، هذا الماء الذى يسيل له لعاب الظمآن من شدة العطش، حتى إذا ما اقترب منه فلم يجد شيئاً، فلقد تبدد السراب، وظل الظمآن على ظمئه.

هذا هو حال الذين كفروا، وهكذا يرون أعمالهم، حيث يتوهمون أن أعمالهم ستنتفعهم فى الآخرة عند لقاء ربهم، ولكنهم يكتشفون أن هذا سراب وأن مآلهم لله عز وجل الذى يجازيهم على أعمالهم.

ولعل الحس البشرى لينفعل ويهتز الوجدان من هول المفاجأة فى الحالين، حال اكتشاف الظمآن الذى يلهث لما يجرى وراءه من سراب، وعلى الجانب المقابل بالنسبة للكافر الذى لم يجد شيئاً بعد طول مشوار الحياة، ثم (وجد الله عنده فوفاه حسابه).

وتدب الحياة والحركة فى هذه اللوحة _ التى تبدو ساكنة _ حيث يتلأل ذلك الشعاع الفضى الساقط على موجات الكثبان الرملية بانحناءاتها الخفيفة التى ينكسر عليها الضوء فتبدو للعين فى حركة إيهامية وكأنها موجات مائية، تترقق فى انسيابها على صفحة المجرى المائى، وتنعكس عليها صورة المرينات مقلوبة كما يحدث فى الواقع. وعلى الجانب الآخر وفى مقابلة مدهشة ترسم يد الله بريشته الإلهية هذه اللوحة البديعة فى مشهد (الظلمة) بصورة تشبيهه بليغة فى قوله تعالى: (كظلمات فى بحر الجحيم....).

تصور اللوحة العواصف العاتية التى تهب على البحار العميقة أو المحيطات فى ليلة شديدة الإظلام حيث ترتفع الأمواج الشديدة بأطوالها وارتفاعاتها وسعاتها، فى حركة متلاطمة هائجة، تنطلق فى طبقات متراكبة، يتراكم بعضها فوق البعض، وتثير

(١) سورة النور: آية ٣٩، ٤٠.

العواصف الشديدة سحباً ركامية هائلة تحجب ضوء الشمس فيخيم على الجو الظلام والاعتماد الذى يحول بين الإنسان وبين رؤية يده، حيث تنعدم الرؤية فى هذا الجو المظلم.إنها صورة عجيبة مذهلة تهز النفس وتحرك الشعور والوجدان لجمال المشهد وجلال القدرة الإلهية فى الخلق وفى التصوير.

وفى مشهد (الظلمة) تطالعنا هذه اللوحة البديعة فى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَعْضِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصِيبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

هؤلاء الكفار الذين استبدلوا الكفر بالإيمان والغى بالرشاد، ودفعوا الهدى ثمناً للضلالة فحسروا هذه الصفقة، فقد شبههم الله تعالى بمن أشعل ناراً ليستدفئ بها ويستضىئى فما كادت تشتعل حتى انطفأت وخبى نورها فتركه فى ظلام دامس وخوف ورعب شديدين لا يبصر ما حوله من هول الظلمة وفقد الكفار وعيهم وحواسهم من بصر وسمع ونطق وتركهم يتخبطون من الخوف والهلع فى ذلك الجو المظلم الموحش.

وزاد الله فى حيرتهم وترددهم، مثلهم كمثل قوم نزل عليهم من السماء مطر شديد مصحوباً بالبرق الخاطف والرعد القاصف، والصواعق العاتية، والظلمات الداجية، مما يجعلهم يضعون أطراف أصابعهم فى آذانهم لاتقاء أخطارها المدمرة المميته.

وهذا البرق الذى يكاد يخطف أبصارهم من شدة ضوئه ولمعانه يضئ لهم الطريق فى نفس الوقت فيسيرون على هديه فإذا ما انطفأت نارهم توقفوا عن المسير وثبتوا فى أماكنهم خشية الانكفاء والسقوط.

وفى هذه اللوحة الحية التى تموج بالحركة والصخب والإيقاع المتهادى مرة

(١) سورة البقرة: آية ١٦ : ٢٠ .

والتصاعد مرات والانتقال بين الظلمة والضوء اخافت والنور الساطع تصوير عجيب
لأعماق النفس الإنسانية بكل ما يعتمل فيها من مشاعر الرعب واخوف والفرع والحيرة
والقلق والتشبت بالحياة والتعلق بالأمل في النجاة.

إنها حقاً صورة رائعة حية نابضة يتلقفها الحس ويدركها الخيال وتتفاعل معها النفس
لما فيها من آيات الجمال.

وفي مقابلة جمالية مدهشة بين الظلام والنور ترسم هذه اللوحة المبدعة عن النور
الرباني :

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي
زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا
غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١)

استخدم القرآن مشاهد الطبيعة المحيطة بالإنسان والمدركة بحسه وجوارحه في مجال
التنزيه المطلق والتجريد الكامل وذلك لكي يقرب معنى النور كصفة من صفات الذات
الإلهية المنزهة عن كل تشبيه _ إلى إدراك الإنسان المحدود، وخياله القاصر، هذا النور
الإلهي والإشعاع الرباني المطلق وغير المحدود واللامتناهي _ سواء على المستوى الحسي
أو المعنوي _ هو نور الله في الكون : بسمائه في نورها المادى بالشمس والقمر
والكواكب والنجوم، وبأرضه في نورها المعنوي بالحق والإيمان والخير والعدل والعلم
والهدى والأخلاق والفضائل وبكل دلائل العظمة والقدرة في خلق الله، هو نور الله
المطلق في كل وقت لا يعرف ليلاً ولا نهاراً ولا سماء ولا أرضاً، نور الله في ذاته في
رسله وفي كتابه، وهو كذلك نور رباني يشع ويتلألأ في صدر المؤمن وقلبه مثل
مشكاة* فيها مصباح مضىء داخل زجاجه شفاف ويتلألأ نور هذا المصباح

(١) سورة النور : آية ٣٥ .

(* المشكاة ما يوضع فيه القنديل أو المصباح (المعجم الوجيز) وهو إناء زجاجي شفاف وعميق كان
يستخدم في البيوت والمساجد، ويوجد نماذج من التراث الإسلامي يعرفها الأثريون ومؤرخو
الفن، ومازالت منه نماذج ببعض المساجد القديمة الآن.

ويتضاعف ويتعاطم نتيجة نفاذ الضوء وانكساره عبر الأسطح الزجاجية المتتالية (سطح الزجاج وسطح المشكاة) عدة مرات وفي مختلف الاتجاهات فيزداد تألقاً وضياءً، وخاصة أن هذا القنديل يضاء بزيت خاص يمتاز بصفائه ونقاؤه مما يسبب شدة إضاءته، فهو مأخوذ من شجرة زيتون مباركة _ تتربع في وسط الصحراء وتنتشر ضوءها في شتى الاتجاهات فتغمرها نورا.

ويتضاعف النور ويتراكم نور على نور، حيث يجتمع نور السراج، وحسن الزجاج، وصفاء الزيت، ليكون نور الله الذى يهدى به من يشاء.

أى جمال أخاذ فى هذا التصوير الإلهى البليغ وأى حس يدرك هذا الجمال وأى خيال يتمثله...

وبين مناطق الظلمة والنور تتكون الظلال وتنتشر على صفحة الأرض فى امتداد وانكماش، فى تفرق وتجمع على السطوح والأجسام وفيما بينها. ويرسم القرآن الكريم صوراً شتى للظلال فى لوحة الكون :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (١)

من الثابت علمياً أن الظل يتكون نتيجة انكسار أشعة الضوء على الأجسام وهذا ما يحدث عند سقوط أشعة الشمس، حيث يكون الظل نعمة لبنى الإنسان ليستظل تحت مساحاته الممدودة على الأرض وتتراوح نفسه به من حرارة الشمس ولهيبتها الحارق، فلولا الظل لأحرقت الشمس الإنسان وكدرت حياته، ولم يجعل الله الظل ساكناً فلو شاء ذلك لفعل ولكن لأن النعمة للإنسان فى حركة الظل كذلك فجعله الله متحركاً بفعل تأثير الشمس، وحركة الأرض حول نفسها ومدارها حول الشمس فتتحرك الظلال وتنتقل من مكان لآخر حيث تختفى هنا وتظهر هناك.

وفى هذه اللوحة، لا تتجلى الألوان أو الأضواء أو الأشكال فحسب باعتبارها عناصر التشكيل الفنى، ولكن يتجلى هنا عنصر فنى آخر هو عنصر الحركة، الحركة المباشرة أو غير المباشرة للظل من أعلى إلى أسفل. والحركة فى هذه اللوحة حثيثة بطيئة، هينة

(١) سورة الفرقان: آية ٤٥ - ٤٦.

رفيقة، تلك هي حركة الظل حين يسقط على الأرض منذ تكوينه مصاحباً للأشياء وعند طلوع الشمس، منتقلاً في أشكاله من هيئة إلى أخرى ومن حالة إلى حالة يتدرج ما بين الانبساط والامتداد إلى التناقص تدريجياً حتى التلاشي. ثم تعود هذه الحركة _ المتخيلة _ لتتكرر مرة أخرى في الاتجاه العكس من أسفل إلى أعلى بنفس هدونها عندما تحين إرادة الله ومشيئته في قبض هذه الظلال بنفس الهدوء ونفس اليسر ونفس التدرج، حتى لا يشعر الإنسان بهزة العودة الفجائية للظل _ إن حدثت _ وما تحدثه من آثار سلبية على الإنسان بدأً ونفساً.

وهنا تصوير من نوع آخر للحركة الإلهية حين تقبض يد الله القادرة المحركة للكون على هذا الظل ليسترده في لطف وهدوء ويسر ويرده إلى ذاته العلية القديرة.

وترسم الريشة الإلهية في تصوير رباني أخذ لوحة أخرى للظل والظلال حيث تقول الآيات :-

﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ (١)
 ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ (٢)

في اللوحة الأولى يقول تعالى للكافرين يوم الفصل سيروا إلى نار جهنم التي كنتم بها تكذبون ... إنها نار شديدة محرقة يتصاعد منها دخان عظيم وكثيف، يتكاثف فوق بعضه ويتراكم في طبقات سميكة متعددة لدرجة إنها تلقى تحتها ظلالاً تعلق رؤوس هؤلاء الكافرين. ولكن هيهات بين هذه الظلال والظلال الممدودة المنبسطة الهادئة والمريحة التي يستظل بها المؤمنون تحت منشآت وموجودات مستقرة وثابتة وآمنة في حين أن هذه الظلال التي توعد بها الله الكافرين ظلال واهمة لا تظل من حر ذلك اليوم ولا تقى من اللهب شيئاً. وسرعان ما تختفى هذه الظلال عندما تتفرق سحب الدخان الكثيف إلى ثلاث شعب ثم تتلاشى.

(١) سورة المرسلات: آية ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة الواقعة: آية ٤١ - ٤٤ .

ويلتقى هذا التصوير للظلال التي يستظل بها الكفار والمنافقون مع ذلك التصوير في اللوحة الثانية :

﴿وَوَظِلٌّ مِّنْ يَّحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ حيث يبين الله تعالى أحوال أصحاب الشمال بهذه الصيغة الاستفهامية ليعظم من التهويل والتفطيع والتعجب من حالهم حيث هم في ريح حارة آتية من النار تنفذ من شدتها في مسامهم، وفي ظل تحت دخان كثيف شديد السواد، وهذا الظل ليس بارداً يستروح به الإنسان من شدة الحر، ولا هو دخان حسن المنظر يكرّم به ويسر كل من يستفئ بظله.

الموضوع الجمالي الثاني: (البحر والموج والفلك والريح)

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن لَّا أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١)

يتجلى جمال التصوير الفنى فى هذا المشهد الدرامى الذى تتعاقب فيه حركات العناصر من أحياء وجوامد مع ما يجيش فى النفوس من خلجات ومشاعر بشكل متداخل ومتشابك تعلق إيقاعاته وتهبط مع تصاعد الموقف واشتداد الأزمة ثم هدوء الأحداث وسكونها.

فها هو البحر بأواجه المناسبة فى هدوء وها هى الفلك تجرى بفعل الريح الطيبة، حاملة عليها الرجال ونفوسهم راضية هادئة فرحة مستبشرة سعيدة بهذه الرحلة. وفى جو درامى مفاجىء يتغير كل شىء وينقلب المشهد إذ تهب ريح عاصفة شديدة ويضطرب البحر ويهيج الموج ويعلو ويتصاعد ضجيجهم ... وهنا تتبدد فرحة الرجال وترتجف أوصالهم ويرتسم الذعر على وجوههم وتعلو دقات قلوبهم وتختلط أصواتها مع صيحاتهم وصرخاتهم المتعالية، ويتصاعد الإيقاع فى الحركة ويسود الهرج والمرج ... وتتحشرج الحناجر بأصوات الدعاء والابتهاال حتى يأتى فرج الله وتحل رحمته ويعم لطفه وينجو الجميع من الموت المحقق ويعود البحر مرة أخرى للهدوء وتتفرج الأزمة.

(١) سورة يونس : آية ٢٢ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)

لوحة تشكيلية مصورة أخرى ومشهد جمالي فى هذا النص القرآنى، - وان كنا نتمثلها لا بحرفية نص الآية بل بما يستدعيه اخيال من تفاصيل على الصورة _ فهذا البحر الهائج المتلاطم الأمواج، قد سخره الله للناس وذلكلهم، فها هو ينساب فى هدوء - وها هى مراكب الصيادين يعتليها الصيادون ناشرين شباكهم ثم يسحبونها مرة أخرى مملوءة باخيرات من أنواع الأسماك باختلاف أشكالها وألوانها، وعلى مسافة منهم ينتشر رجال آخرون يستخرجون صنوف اللآلىء والجواهر والأصداف ... وتكتظ السفينتان بما عليهما من رجال يمارسون عملهم فى همة ونشاط وفرح وسرور مستبشرين آملين فى رزقهم المنتظر .. تملو أصواتهم وتعدد حركات أجسادهم فى إيقاعات فنية بديعة ... بينما تجرى سفن أخرى تمخر البحر بقوة بصدورها المسنمة وتشقه جارية فيه مقبلة وأخرى مدبرة، فى حركة ونشاط وحياة.

الموضوع الجمالى الثالث: (البرق والرعد والصواعق والأعاصير)

قال تعالى :

﴿ أَيُودُ أَحَدِكُمْ أَنَّ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لِعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢)

ويقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ (٣)

(٢) سورة البقرة : آية ٢٦٦ .

(١) سورة النحل : آية ١٤ .

(٣) سورة النور: آية ٤٣ .

ويقول تعالى:

﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (١)

ويقول تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيَّ شَيْءٌ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ (٢)

هذه آيات أربع - وغيرها الكثير - من الآيات المحكمات في القرآن المبين التي تصور البرق والرعد والصواعق والأعاصير كظواهر كونية مسيرة بقدرة الخالق الأعظم، صورتها الكلمات في بلاغة معبرة وجمال أخذ تستشعره النفس ويرتسمه الخيال ويؤخذ به اللب وينفعل له الوجدان.

في الآية الأولى تصوير جمالي أحاذ للحديقة الغناء تزينها أشجار النخيل والفاكهة من كل صنف ولون، وتنساب المياه في مجاريها من الأنهار تحتها. ثم لظروف ضعف صاحبها وكبر سنه مع عدم قدرته هو وأبنائه الضعاف على العمل. تجف هذه الحديقة،.. ثم تستكمل الصورة بمرحلة تالية حيث تهب عليها الأعاصير والرياح الشديدة مصحوبة بالأتربة والرعد والبرق وتشتعل النيران وتتصاعد الأدخنة الكثيفة لتحجب الرؤية، ويتولد الشرر وتشتعل الحريق، وتأكل النيران العاتية كل ما في البستان من خير وجمال وتأتي على كل ما فيها، بينما صاحبه وذريته أحوج ما يكون إليه.

وفي الآية الثانية: تصوير جليل وجميل للوحة السماء والسحاب والمطر، رسمتها الريشة الإلهية حية متحركة، ملونة ومظللة، مضيئة ومشعة، محسة ومجسمة... يزجي الله السحاب ويسوقه بقدرته إلى حيث يشاء، يجمعه بعد تفرقه، يتكاثف ويتراكم فوق بعضه البعض، ويخرج المطر من بين السحاب الكثيف الضارب إلى السواد، الثقيل كالجبال، يصيب المطر من يشاء من العباد، فيخضر الزرع ويثمر الثمر إذا كان المطر خفيفاً، ويضر الزرع والثمر إذا انهزم في سيول مدمرة، فسبحان من جعل السماء منشأ للخير والشر... ثم يلمع البرق في عنان السماء يكاد يخطف الأنظار من شدة ضوئه.

(١) سورة البقرة: آية ١٩ .

(٢) سورة إبراهيم: آية ١٨ .

وفى الآية الثالثة : تصوير أعداء الله وهم فى حيرتهم وترددهم كمثلى قوم أصابهم مطر شديد أظلمت له الأرض وأرعدت له السماء رعداً قاصفاً وأبرقت برقاً خاطفاً، ظلمات داجية وصواعق عاتية تجعلهم يضعون أصابهم فى آذانهم ليسدوها حتى لا تسمع هذه الأصوات المدوية، وحتى يدفعون عنهم خطر الصواعق، وهم فى غاية الدهشة والفرع والرعب.

أما فى الآية الرابعة فتصوير لأعمال الكفار فى الدنيا مثل رماد عصفت به الريح الشديدة فى يوم شديد هبوب الريح، فهذه الأعمال يمحها الله كما تمحق الريح العاصفة الرماد، فهم لا يحصلون على ثواب ما عملوا كما لا يستطيع الإنسان أن يحصل على شىء من الرماد الذى طيرته الريح.

الموضوع الجمالى الرابع: (حركة الحياة على الأرض)

آيات الله فى الكون تصور عظمة قدرته تصويراً يهز الوجدان ويمتع الحس فى هذه اللوحة الجامعة لمظاهر هذه القدرة فى الخلق...

١ - ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَىِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَىِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾

إنه حشد هائل من الأنشطة والأوجه الحياتية، إنها الحياة الكاملة بكل ما فيها فى

(١) سورة الأنعام : آية ٩٥ - ٩٩ .

الأرض والسماء. إنها حركة الحياة بأحيائها وجوامدها. رسمتها يد الله القادرة في لوحة الحياة وصورتها تصويراً جمالياً مبدعاً بكل وسائل التصوير الفني باللون والخط والإيقاع والحركة.

وعنصر الحركة _ هنا هو أبرز مقومات التصوير التشكيلي في هذا المشهد، الحركة بأنواعها المختلفة ومستوياتها المتعددة.

فها هي حركة الخلق كله حركة البدء والنهاية، حركة الحياة والموت حركة دائبة كونية مستمرة وخالدة، إخراج الميت من الحى وإخراج الحى من الميت، يفلق الحب تحت الأرض ليخرج منه النبات، ويفلق النواة الميتة فيخرج منه حبا وورقا أخضر، ويخرج النبات الحى الأخضر من الحب اليابس ويخرج الحب اليابس من النبات الحى الغض، ثم حركة إخراج الحى من الميت والميت من الحى تتحقق على مستوى آخر عندما يراد بها إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

ثم حركة أخرى كونية فى شق الضياء عن الظلام ليخرج عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده. حيث يخرج الناس إلى رزقهم فى حركة وعمل دائب حتى إذا ما أقبل الليل يخفف إيقاع هذه الحركة وتهدأ الأنفاس اللاهثة (وجعلنا الليل سكناً) فتلك هى حركة الشمس والقمر والليل والنهار والكواكب والنجوم تسير فى مداراتها فى حركة معلومة وإيقاع محدد ونظام دقيق. وها هى حركة الخلق التى أنشأت البشرية كلها من نفس واحدة وهكذا الحركة أبدية ثم حركة أخرى فى إنزال المطر من السماء ونمو الزرع والزهر والثمر. وها هى حركة من نوع جديد أبداً إيقاعاً ولكنها أكثر كثافة وحشداً. إنها حركة النمو. فهذه النباتات والمحاصيل والمزروعات _ على اختلاف أنواعها وأعمارها _ تنمو بإيقاعات مختلفة السرعة والمعدل، فظهر على لوحة الأرض مختلفة الطول والقدر. وتظهر حركات النمو مختلفة المظاهر من امتداد للجذور إلى استطالة السيقان، واستدارة الأوراق، وتفتح البراعم، والزهور، وتكون الثمار.

ثم حركة أخرى لا تقل إيقاعاً وثناء وتنوعاً هى حركة التنوع الهائل فى أصناف المزروعات والمحاصيل والفواكه من الحب والنخيل والزيتون والرمان والأعشاب.

هذا التنوع الهائل في الشكل واللون والطعم لكل من هذه الأنواع (مشتبها وغير متشابه) سواء حبا متراكبا في سنابل كالحنطة والشعير والذرة والأرز، أو في ثمار صغيرة في عناقيد وعراجين كالعنب والتمر، أو في ثمرات كروية الشكل مثل الرمان وخلافه ... ومثل اختلاف اللون حيث تشهد هذه اللوحة مجموعة هائلة من الألوان والدرجات اللونية المختلفة ما بين داكن وناصع وهادىء وفاقع.

والى جانب كل هذه التنوعات من الحركة ومستوياتها وأنماطها فى هذا المشهد يضيف (محمد قطب) صورة أخرى من التنوع فى هذه اللوحة بما يسميه بتنوع التعبير:

حيث يقول: «لكأنى المح فى تنوع نسق التعبير فى كل مرة أمرا مقصودا لإيقاظ الحس حتى لا يستتيم لرتابة العرض وهو يستعرض آيات الله فى الكون. انه لا يقول هنا يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، وإنما يقول: يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى فييده الحس بتغيير النسق قبل ان يسترسل مع رتابة التعبير:

ثم لا يقول: فالق الاصباح، وجاعل الليل سكنا.

إنما يقول: فالق الاصباح، وجعل الليل سكنا.

ثم لا يقول: متشابهها وغير متشابه.

إنما يقول: مشتبها وغير متشابه.

ثم لا يقول: فأخرجنا منه خضرا فأخرجنا منه حبا.

إنما يقول: فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا.

هل ترى كل ذلك مصادفة، أم هو أمر مقصود للتنوع بكل وسائل التنوع وهو يستعرض أنواعا مختلفة من الحياة فى صفحة الكون ويريد أن يلفت الحس للقدرة القادرة التى تخلق كل هذه الأنواع وينسق فى اللوحة بين تعدد النماذج والأنماط فى المشهد وفى التعبير عنه سواء، إلا انه لون من الإعجاز فى التصوير والتعبير»^(١)

(١) محمد قطب: منهج الفن الإسلامى، ص ٢١٦ .

٢ - مشهد آخر من المشاهد القرآنية لتصوير حركة الحياة على الأرض . أنها حركة من نوع آخر :

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبَتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَأَيَّةٌ لَهُمُ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمُ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾ (١)

ينقسم هذا المشهد الالهي إلى لوحتين تصويريتين تعرضان نوعين مختلفين من الحركة، حيث التقابل بين الحركة الخفية المستترة والهادئة المتهادية في بطاء وتؤدة، في اللوحة الأولى، وبين الحركة العنيفة القوية الدافعة بشدة في اللوحة الثانية.

في اللوحة الأولى هناك حركة انفلاق الحب والنوى، وخروج الميت من الحى والحى من الميت، وانفلاق الصبح وسكون الليل، وحركة الشمس والقمر والنجوم، وحركة الأنسال في مستقرها ومستودعها، وحركة نمو النبات وإزهاره وإثماره ... كلها متنوعات للحركة اللطيفة الوئيدة البطيئة الهادئة ... مما يصبغ اللوحة كلها بإيقاع هادى وديع.

أما في اللوحة الثانية فتنتقل الحركة من إيقاعها المتهادى إلى مستوى من الحركة أكثر دنيا ميكية وأعظم حيوية واشد وقعا. فيها هى العيون تنفجر بالمياه منطلقة فى سرعة وتدفق، ثم خلق الأزواج كلها فى حسم وقطع، ثم حركة (سلخ) النهار من الليل بما يتمثله الخيال من وقع عملية السلخ بجهدا وشدتها ... ثم حركة الشمس وهى (تجرى) ثم (تستقر) بما تلقيه فى النفس من ظلال لإحساس الجرى ثم الاستقرار

(١) سورة يس : آية : ٣٣ - ٤٣ .

ثم حركة القمر في منازلها ينتقل من مرحلة لأخرى انتقالاً واضحاً للعيان بما يصحبه من تغيير في الشكل والضوء إلى أن يعود كالعرجون القديم

ثم هذه هي حركة السباق الدؤوبة بين الأجرام السماوية ولكنها في النهاية حركة تحقق التوازن والتناسق في نظام هذه الحركة. ومداهها، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار.

وأخر مستويات الحركة في هذه اللوحة في (وان نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقدون). «فهنا تتمثل حركة الإغراق العنيفة وما توحيه من تشبث عنيف من جانب المغرقين. ومع أن عملية الإغراق لا تتم فعلاً، فإن حركتها تتم كاملة في الخيال، ويسمع جلبة (الصريخ) بالفعل وان كان في الصورة منفي الحدوث» (١)

هكذا نشاهد ونستمع ونتدبر في معرض الإبداع التصويري الإلهي، مشاهد الطبيعة الحية والصامتة .. المتحركة والجامدة .. الشاخصة والمتخيلة، صورتها يد الله القادرة المبدعة في لوحات جمالية ولقطات إبداعية: لوحة الأرض والحصب والحب، لوحة النخل والشجر والزهر والثمر، لوحة السماء والنجوم، لوحة السحاب والمطر، لوحة الشمس والقمر، لوحة البحر والفلك ومستخرج الدرر، ثم أخيراً لوحة النفس البشرية بما بها من حياة وحركة _ ومشاعر وأحاسيس :ألما وأملا، حزنا وغصبا، فرحا وسرورا. لوحات جمالية صورها القرآن الكريم بكل وسائل الإبداع التصويري : رسماً ولوناً وحركة وإيقاعاً.

وهكذا يفتح القرآن الكريم _ بإعجازه _ كتاب هذا الكون الجميل، ويقلب في صفحاته العجيبة التكوين والتلوين، ويطلعنا عليها ويرينا إياها حتى نعرف الله معرفة حقيقته بآثار صنعته وندرته بآثار قدرته، ونستشعر به عظمة إبداعه، فنعبده حقاً ونخشاه حقاً. وهذه النماذج من روائع التصوير وبدائع التكوين والتنسيق لا يدركها إلا كل إنسان يستشعر قلبه هذا الإبداع ويتحرك به فؤاده ويرى به يد الله المبدعة في ذلك الكون الجميل.

(١) محمد قطب : نفس المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

القرآن والتصوير الجمالي في مشاهد القيامة

أن مشاهد القيامة في القرآن من أكثرها وروداً في ثناياه، بل هي من أروع مجالاته تصويرياً. وبالرغم من أن مشاهد القيامة تنطوي على مضمون ديني بحث من حيث المغزى والموضوع، إلا أن هذا المضمون في نفس الوقت يتضمن دلالات فكرية وخلقية وجمالية.

ومن أبرز سمات هذه الدلالات هي فكرة اتصال الحياة الدنيا بالآخرة اتصالاً وثيقاً بحيث تكون الآخرة هي الامتداد للدنيا أو النهاية الحتمية لها دون حواجز أو فواصل. وإن هذا التصور الكمالي والجمالي للحياة، يقوم على أن الآخرة والجزاء فيها ثواباً أو عقاباً ليست نهاية الرحلة فحسب بل هو التطور النهائي لها كذلك» (١)

ويتعدد _ في كثرة هائلة _ في القرآن الكريم ورود مشاهد يوم القيامة، والبعث، والحشر، والحساب ثم الجزاء بالشواب والعقاب، وبما يتضمنه من مشاهد أهل الجنة ونعيمهم، وأهل النار وعذابهم مما لا يتسع هذا الكتاب لحصرها وتناولها بالشرح والتفصيل. إلا أن الكاتب يكتفي باقتطاف بعض النماذج من التصوير القرآني لهذه المشاهد.

مشاهد يوم القيامة والبعث والحشر:

١ - «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ» (٢)

تصور الآية (نفخة الفزع) وهي أولى مراحل القيامة، حيث يتلوها نفخة الصعق وهي الموت ثم نفخة النشور وهي البعث من القبور والقيام لرب العالمين. وفي هذا المشهد نستشعر حركة صاحبة على عدة مستويات وإيقاعات متعددة. فلنا أن نتصور حركة النفخ وما يصدر عنها من أصوات وما تتطلبه من جهد وقوة. ثم حركة الفزع

(١) محمد قطب: المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٢) سورة النمل: آية ٨٧، ٨٨.

بما يصاحبها من ضوضاء وهرج ومرج وتحرك فى كل اتجاه، وصيحات هنا وهناك من كل الاحياء والكائنات.

ثم ها هو تصوير الحالات النفسية وما يرتسم على الوجوه من إمارات الهلع والفرع وما يمس القلوب من مشاعر الخوف والرعب. ثم حركة القيام والبعث من القبور حيث يهب كل من فيها يأتون إلى ربهم صاغرين مطيعين ... ويكمل هذا المشهد من مشهد آخر يبرز مستوى آخر من الحركة، وهى حركة الجبال الشاهقة وهى تسير سريعاً كالسحاب ... وهذه الحركة تتم بسرعة فائقة حتى يخيل للرائى إنها جامدة لا تتحرك من فرط سرعة سيرها وحركتها.

٢ - ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ (٦) خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسْرٍ ﴿١﴾

فى هذا المشهد نوع خاص من السياق الموجز المركز، تتكشف فيه الأحداث فى شكل ومضات سريعة ومركزة تذكرنا بأحدث اتجاهات وتقنيات فن القصة القصيرة. إنه حشد من الصور المتتالية السريعة فى أحد مشاهد الحشر فى ذلك اليوم العظيم، يصور جموع المبعثين خارجة من الأجداث فى لحظة واحدة متدافعين متزاحمين وكأنهم أسراب محتشدة من الجراد تسير مندفعة لتلبية دعوة الداعى الذى دعاها فى هذه اللحظة الحاسمة. وهم خاشعو الأبصار منكسو الرؤوس، لا يدرون لماذا هم مدعوون فهم ينظرون إلى الداع فى ذلة وخضوع لا يتحول بصرهم عنه ويقولون فى أنفسهم خوفاً من هذا اليوم هذا يوم جد صعب وجد شديد.

فهذا تصوير فريد لمشاعر الخوف والفرع والرهبه والاستسلام، تصوير حى يرتسم فى اخیال ويحرك الحس ويهز الوجدان.

٣- ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

(٢) سورة الحج : آية ٢ .

(١) سورة القمر: آية ٦ - ٨ .

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (١)
 ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا
 مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِن كَانَتْ إِلَّا
 صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُم جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (٢)

إنها لوحة بانورامية مستعرضة تصور يوم القيامة في ثلاثة مشاهد حية تموج بالحركة والديناميكية والصخب، وتفيض بالمشاعر الانفعالية والخلجات النفسية .

المشهد الأول: يزدحم بذلك الحشد الهائل من البشر الذاهلين من الهول العظيم .

فبكل القوة التي تهز النفوس وترج الأجساد تتمثل في المشهد (زلزلة الساعة)، هذا الهول يذهل المرضة ويضيع صوابها فتتشغل عن رضيعها من فرط أوجاعها وهمومها ومن شدة ذهولها بالموقف، إذ تنزع ثديها من فم طفلها الرضيع وهو أحب الناس إليها. حتى المرأة الحامل تسقط حملها في غير أوانه فزعا ورعبا.

أما الناس فتراهم في نظراتهم الذاهلة وخطواتهم المترنحة فتظنهم سكارى وما بهم من سكر، ولكن الهول الذي شاهدهه والخوف من عذاب الله الشديد. هو الذى أفقدهم توازنهم وسلبهم عقولهم.

والمشهد الثانى: تأكيد مركز ودقيق مرة أخرى لما يصيب النفوس والقلوب لهول ذلك اليوم العظيم : إنه تصوير لانشغال القلب والفكر بالهم الحاضر القاهر فلا سواه شاغلهم، ولا انتباه لغيره منهم. فإذا صاغت الصاخة وجاءت صيحة القيامة التى تصخ الآذان حتى تكاد أن تصمها. فى ذلك اليوم يهرول الناس فى حركة واندفاع وفرار فى شتى الاتجاهات لا يفكر كل منهم إلا فى نفسه فقط وكيف يلوذ بها تاركاً كل الناس حتى أحبابه واقرب الناس إليه : الأخ والأم والأب والابن والزوجة، فلكل إنسان منهم فى ذلك اليوم العصيب شأن يشغله عن غيره من الشئون مهما كانت هذه الشئون.

أما المشهد الثالث: فهو مشهد حاسم فى مراحل القيامة. فبعد الصيحة الأولى التى

(٢) سورة يس: آية ٥٢، ٥٣ .

(١) سورة عبس: آية ٣٣ - ٣٧ .

أخذت الناس وعجلت بهم إلى القبور، ها هي الصيحة الثانية حيث ينفخ في الصور نفخة البعث والنشور ويخرج الناس من القبور سراعاً محتشدين متزاحمين وهم يرددون ويتساءلون _ وقد أخذتهم الدهشة وروعهم الهول _ ما الذى أخرجنا من قبورنا، بينما تجيهم الملائكة بأن هذا ما وعدكم الله به حيث البعث بعد الموت والحساب والجزاء. إن هذا البعث ما هو إلا صيحة واحدة «يصيح فيها إسرافيل : أيتها العظام النخرة، والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ثم ينفخ في الصور فإذا هم مجموعون فى موقف الحساب»^(١) ذلك الحساب العادل الذى لا يظلم أحداً والذى يحصد فيه كل إنسان جزاء عمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر. ويرسل إلى الجنة من يرسل وليقذف به إلى النار من يقذف.

مشاهد النعيم فى الجنة:

١ - ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿٢﴾

٢ - ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتْقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ زَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ أَمِينٍ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٣﴾

لوحتان فئتان تصوران مشهد الجنة فى صورة كلية عامة تجمل المشهد كله وتصور الجو العام فى لمسات عريضة وبمساحات واسعة وبألوان هادئة وإيقاع متند. دون

(٢) سورة الزمر: آية ٧٣ - ٧٥.

(١) صفة التفسير: ج-٣، ص ١٩.

(٣) سورة الدخان: آية ٥١ - ٥٦.

تفاصيل أو حركات عنيفة بحيث يصبح هذا الجو العام تمهيداً. كخلفية فنية تستعد لاستقبال ما يليها من تفاصيل وجزئيات دقيقة.

فها هم المتقون يساقون مكرمين إلى الجنة جماعات جماعات، وتفتح لهم أبوابها ليدخلوها آمنين مطمئنين مقدراً لهم فيها الخلود فقد أعد لهم الله من النعيم ما لا يخطر على بال.

وها هي الجنات التي ينعمون فيها، وعيون الماء تجري من تحتها، إكراماً لهم باغظام نعيمهم، يلبسون ما رق وما غلظ من الحرير متقابلين في مجلسهم ل يتم لهم الإنس، وقد زوجوا بحور عين، يطلبون كل فاكهة يشتهونها، وهم آمنون من الغصص والزوال والحرمان. لا يخافون الموت بعد الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا عند انقضاء آجالهم، ويحمدون الله الذي وقاهم عذاب الجحيم.

٣- «وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاجِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزُرَابِيٌّ مُبَثَّرَةٌ (١٦)»

في هذه اللوحة تبدأ التفاصيل تظهر وأوصاف الجنة وأهلها تتجسد في لمسات فنية تخاطب الحواس ويكملها التخيل والتمثيل والتجسيم. فتظهر الوجوه ناعمة ذات بهجة وحسن وإشراق، وتبدو الجنة بحدائقها وبساتينها عالية المكان والمكانة فيتها مسون في هدوء لا تسمع ضجيجاً ولا شتماً ولا سباً ولا فحشاً، تتدفق في عيونها الكثيرة المياه الجارية في سريان لطيف ينبيء بالرخاء ويعكس في النفس الراحة والطمأنينة. وتفصيل آخر في لمسات جمالية بديعة. لفرش الجنة وأثاثها: أسرة مرتفعة مزينة بالأحجار الكريمة والوسائد التي صفت متجاورة ليستندوا عليها، والطنافس الفاخرة ذات الحمل الرقيقة والمزودة بالزخارف والنقوش والألوان الزاهية، والاقداح والأكواب المعدة للشراب والمملوءة بما لذ من الشراب ولا تحتاج إلى من يملأها.

وكل هذه اللمسات التأثيرية الدقيقة والتفاصيل الوصفية المنمنمة التي ترسم لوحة الجنة وكأنما نحن أمام واحدة من فن المنمنمات الإسلامية التي اشتهر بها الفنان المسلم

(١) سورة الفاشية: آية ٨ - ١٦ .

... وبهذا يكون الانسجام التام بين كل مشاهد النسق القرآني الذي مهد في اللوحات السابقة لتصوير الجو العام للجنة ثم تجيء هذه اللمسات الشكلية واللونية والحركية الدقيقة التي ترتسم على خلفية المشهد لتؤكد وحدته الفنية وليجمع في النهاية كل هذا التنوع في الوحدة الكلية للموضوع المصور.

٤- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ (١)

هذا ركن آخر من اللوحة التصويرية للجنة ونعيمها يتناول وصفاً تفصيلياً وعرضاً لأنواع الأنهار المتعددة التي تجرى في هذه الجنات :

أنهار جاريات من ماء طيب الرائحة وكأنها تفجرت من جبل من مسك، وأنهار من لبن ناصع البياض غاية في الحلاوة والدسامة، لم يفسد ولم يتغير طعمه كما تفسد ألبان الدنيا وكأنه حليب من نوع خاص لم يخرج من ضرع الماشية، وأنهار من خمر لذيذ الطعم غير خمر الدنيا الكرية الطعم لا يتلذذ به إلا فاسد المزاج، وأنهار من عسل غاية في الصفاء وحسن اللون والطعم والريح لم يخرج من بطون النحل ولم يخالطه الشمع وفضلات النحل، كما أن في الجنة أنواع متعددة من أصناف الفواكه والثمار جميلة الشكل ولذيذة الطعم.

٥- ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (٢)

هنا نوع آخر من التفاصيل واللمسات الفنية في أوصاف الجنة وأهلها. فهم يحلون ويتزينون بأساور الذهب والفضة واللؤلؤ. ويرتدون الثياب الحريرية الخضراء، ومتكئين على السرر والأرائك الذهبية المكحلة بالدر والياقوت.

٦- ﴿وَجَزَاءُهم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةٌ وَحَرِيرًا﴾ (٣) متكئين فيها على الأرائك لا يروون

(٢) سورة الكهف: آية ٣١ .

(١) سورة محمد: آية ١٥ .

فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا (١٤)
 وَيَطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا
 تَقْدِيرًا (١٦) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى
 سَلْسَبِيلًا (١٨) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا
 (١٩) وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ
 وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعٌ أُسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)

هذا هو تصوير دقيق وتعبير بليغ وعرض كامل متكامل لحياة أهل الجنة وما هم فيه
 من نعيم : الجو اللطيف ليس بحار ولا بارد، والظلال الوارفة بقطوفها المذلة، وأكوابهم
 الفضية النقية المتألنة التي يشربون فيها ما لذ طعمه من شراب، وما يطوف عليهم من
 غلمان حسان كان وجوههم حبات لؤلؤ منشور، وما يرتدونه من ثياب حريرية خضراء
 وما يتحلون به من أساور فضية الخ

إنها لمسات تفصيلية دقيقة يستكمل بها المشهد التصويرى البديع الذى تجتمع فيه
 فى وحدة جمالية واحدة كل عناصر التشكيل والتعبير الجمالى من أشكال وألوان
 وملامس وأضواء وحركات وإيقاعات .

وهكذا يبدو التناسق الفنى فى التصوير القرآنى أعلى من البلاغة الظاهرية ورافع من
 الفصاحة اللغوية، والصياغة اللفظية ... وهكذا ايضا يتحقق فى القرآن التوازن التام بين
 الغرض الدينى والتصوير الفنى الجمالى فهما دائما وحدة واحدة لا تنفصل .

مشاهد العذاب فى النار

١ - ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا
 وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
 يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾

(١) سورة الإنسان : آية ١٢ - ٢١ .

(٢) سورة الزمر : آية ٧١ .

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ (١)
 ﴿وَجُوهُهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ (٢)
 ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ
 يُسْجَرُونَ﴾ (٣)

يصور هذا المشهد حالة الكفار والمنافقين أهل النار وهم يساقون إلى جهنم وكيفية
 حشرهم ودفعهم إليها. ثم يصور وصفاً لوجوههم وحالتهم النفسية. ويتكون هذا المشهد
 من أربع لوحات منها ما هو لقطات وصفية عامة تصور الجوع والمناخ والحالة العامة،
 ومنها ما هو أضواء مركزة مسلطة على تفاصيل دقيقة من الجسم أو الحدث.

أما اللوحة الأولى فتمثل سوق أهل النار وتردهم إليها بالخرى والهوان، ودفعهم
 جماعات جماعات حيث تفتح لهم أبواب جهنم ويتقبلهم حراسها بالتقريع والتوبيخ،
 والتأنيب، ليكثروا فيها ويقومون بنس المقام والمأوى.

وتصف اللوحة الثانية آثار الخوف والرعب والهم التي تنعكس ظلالتها على وجوه
 المجرمين أهل النار حيث يحشرون يومئذ زرق الوجوه من الكدر والغم. بل إنهم زرق
 العيون أيضاً من شدة ما هم فيه من الأهوال.

ولقد تناول المفسرون كلمة (زرقة) في الآية بالتفسير نكتطف منها :

—زرقة أى عمياً، لأنه حدقة من يذهب نور بصره ترزق، ويمكن أن يراد رزقة
 أجسامهم من ثقل ما هم فيه (٤)

—زرقة .. أى رزق العيون أو عمياً أو عطاشاً، وسواد العين يتغير ويرزق من
 العطش— (٥)

ونضيف إلى هذه التفسيرات اللغوية والدينية المتخصصة ما نلاحظ في حياتنا
 اليومية ما تصاب به شفتا الإنسان برزقه اللون عند ارتعاد جسمه من البرد الشديد أو من
 الفزع الشديد. حيث أن الشفتين هما أكثر أجزاء البشرة الظاهرة حساسية.

(٢) سورة الغاشية: آية ٢ - ٤ .

(٤) المنتخب في تفسير القرآن الكريم.

(١) سورة طه: آية ١٠٢ .

(٣) سورة غافر: آية ٧١ ، ٧٢ .

(٥) صفوة التفاسير.

أما الآية الثالثة : فتؤكد حال الذل والانكسار التي تنعكس على وجوه المجرمين في جهنم حيث تبدو ذليلة خاضعة مهينة، دابة العمل فيما يتعبها ويشقيها في النار جزاء تكبرهم في الدنيا عن عبادة الله وانهماكهم في لذاتهم وشهواتهم. فهم في نار مسعرة شديدة الحر.

أما الآية الرابعة : آخر لوحات هذا المشهد فتصور ما يقوم به المعذبون في الآخرة من أعمال شاقة ترهقهم وتنهك قواهم؛ فهم حين يدخلون النار تربط أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل ويسحبون بها إلى الماء الحار المسخن بنار جهنم، ويسحبهم الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم، وها هم يتعبون ويشقون بسبب جر السلاسل والأغلال وخوضهم في النار خوض الإبل في الوحل والصعود والهبوط في تلالتها ودركاتها.

٢_ «إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» (١)

«تَسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ» (٢)

«فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ» (٣)

«فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» (٤)

(٢) سورة الفاشية آية: ٥ - ٧.

(٤) سورة الحج آية: ١٩ - ٢٢.

(١) سورة الدخان آية: ٤٣ - ٤٩.

(٣) سورة الحاقة آية: ٣٥ - ٣٧.

ويصور هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة طعام أهل النار وغذاءهم، وماكلهم ومشربهم وطعوم هذه المآكل والمشارب في حلوقهم ومذاقها في أفواههم وما تفعله في أمعائهم وأحشائهم من آلام وأوجاع.

ففي اللوحة الأولى إحدى أشجار جهنم وهي شجرة الزقوم الخبيثة السيئة الطعم هي طعام جهنم الوحيد لكل كافر فاجر مشرك آثم، فليس له طعام غيرها، وهي في شناعتها وفضاعتها إذا أكل منها الإنسان فكأنما أكل نحاساً مصهوراً مغلياً تنأى حره، فيجرجر في البطن كغليان الماء في الآنية، ثم هذا هو الفاجر اللئيم يساق ويجر من تلايبه بعنف إلى الجحيم، ثم يصب فوق رأسه عذاب الحميم.

وفي اللوحة الثانية تصوير آخر ووصف مختلف لمآكل ومشرب أهل النار، فهم يسقون من عين متناهية الحرارة شديدة الغليان، وليس لهم طعام إلا الضريع ذلك الطعام الخبيث السام يشع الشكل بأشواكه سىء الطعم بمرارته، فهو لا يفيد القوة والسمن في البدن ولا يدفع الجوع عن آكله.

«وقد روى أنه يسلط عليهم الجوع بحيث يضطرهم إلى أكل الضريع فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم إلى شرب الحميم فيشوى وجوههم ويقطع أمعائهم»^(١)

أما اللوحة الثالثة فتعرض نوعاً جديداً من طعام أهل النار فإن كلا منهم وحيد بمفرده ليس له صديق يدفع عنه العذاب حيث يتحاشاه الأصدقاء ويفرون منه، وليس له طعام إلا صديد أهل النار الذى يسيل من جراحهم، ذلك الطعام الخبيث البشع الكريه الذى لا يأكله إلا الخاطئون»^(٢)

وفي الصور السابقة تنوع طعام أهل النار، فمرة هو الزقوم، ومرة يكون الضريع، وثالثة يكون الغسلين، ولا تنافى بينهم أو تعارض، لأن المعذنين أنواع، والعقاب ألوان، فهكذا يتنوع الجزاء بتنوع الذنب.

(١) صفوة التفسير: ص ٥٥٢، عن تفسير أبى السعود.

(٢) الخاطى هو الذى يتعمد الذنب، أما الخطفى فهو الذى يفعل الخطأ دون قصد أو عمد، ولهذا قال (الخطئون) ولم يقل (الخطئون)، تعظيماً لآثامهم وتهويلاً فى خطاياهم.

ويختتم هذا المشهد الذى يصور أهل النار بهذه اللوحة التى يتعدى فيها وصف المآكل والمشرب إلى وصف ما يلبسه أهل النار من ثياب. فقد فصلت وخطت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها، فالنار هنا لباس لهم كالثياب. ويصب على رؤسهم الماء الحار المغلى بنار جهنم فيذاب به ما فى بطونهم من أمعاء وأحشاء مع جلودهم أيضاً.

ولنا إن ننظر ونتأمل الصورة الحسية المتخيلة والمسترة خلف التصوير اللفظى، عندما نتخيل الحميم المصبوب على رؤسهم وتأثيره فى الباطن الداخلى للإنسان مثل تأثيره فى الظاهر الخارجى لجسده، حيث يذيب الأمعاء والأحشاء كما يذيب الجلود. وليتمثل اغتيال صورة الحميم عندما يصب فوق رؤس الكافرين، فينفذ من الجمجمة حتى يصل إلى الجوف فيذيب ما فى الجوف ويصهره ثم يخرج هذا الحميم المصهور السائل من داخل الجسم إلى خارجه فينخر العظام ويأكل اللحم ويسلخ الجلود.

وهذه الصورة الحسية المجسمة والمتخيلة والمتمثلة هى واحدة من الصور العديدة التى تصور مشاهد العذاب والتنكيل والإذلال لأهل النار يوم القيامة، تصويراً جمالياً بلغة الفن عندما تكون الكلمة لغته والتصوير وسيلته.

وهنا قد يقول قائل، أو يسأل سائل: أى جمال فى هذا العذاب المؤلم. وفى هذه المناظر المقرزة والطعوم الكريهة؟

ورداً على هذا نقول أن الجمال بمعناه الدارج أو المؤلف يختلف عن الجمال الفنى أو الاستاطيقى، ذلك الجمال الذى يقوم على جمال التعبير أكثر من جمال التأثير. ففى الجمال الفنى _ كما يقول (كانط) يمكن تصوير أى شىء ولو كان قبيحاً فى الطبيعة حتى لو كان دمار الحرب أو ما يثير اشمزازنا. ويذهب (جون دنيس) إلى أن هناك فى أوجه الفن ما يسمى بـ (الرعب البهيج)، ذلك الذى وصفه فى حديثه عن رحلته عبر جبال الألب فى نهاية القرن الماضى، فهو يقول عن الصخور والمنحدرات الهاوية أنها بعثت فيه رعباً بهيجاً وسروراً مخيفاً حتى أننى كنت أرتعد فى الوقت نفسه الذى كنت اشعر فيه بلذة لا حد لها» (١)

(١) أحمد رأفت على: الرسم بالألوان فى القرآن، مرجع سابق، ص ١٩٥.

وهذا ما يسميه (دوفرين) استايطيقا القبح أو القبح الجميل وهو يبين بهذا، كيف يمكن تمييز الجمال الفنى (الاستايطيقى) عن الجميل بمعناه المؤلف من خلال موضوعات تعتبرها غير جميلة كتلك الموضوعات القبيحة أو الشريرة أو التي تثير فى نفوسنا الألم أو الاشمزاز.

«فالجمال الاستايطيقى أو الجمال الفنى ليس هو ما تعارفنا على تسميته أو وصفه بكلمة الجمال، وإنما هو نمط خاص متميز من الجمال قد يكون مضاداً لمفهوم الجمال بمعناه الدارج، وقد يكون مختلفاً عنه فحسب وقد يكون غير متعلق به بأية علاقة. وكما أن الموضوع القبيح يمكن أن يكون موضوعاً جمالياً، كذلك فإن الموضوعات التي تثير حزننا وخوفنا وتسبب آلمنا ونفورنا فى عالمنا الواقعى _ تستثير إعجابنا حين نجدها مصورة من خلال لوحة فنية أو مسرحية أو قصيدة شعرية أو أى عمل فنى أدبى»^(١)

وعلى هذا المفهوم للجمال الاستايطيقى تقوم أحدث الاتجاهات المعاصرة فى الفنون اليوم.

(١) سعيد توفيق: مداخلى إلى موضوع علم الجمال، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٩٢ ص ٩٧ .